بيان الفرق

بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

للحافظ

أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى

من علماء القرن الثالث

تحقيق وتعليق

الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح

مركز الحضارة العربية للنشر

بيان الفرق

بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

للحافظ

أبى عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى

من علماء القرن الثالث

تحقيق وتعليق

الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح

مركز الكتاب للنشر

مركز الكتاب للنشر

مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠-فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مطبعة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: [illegible]٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين. الذى أنعم علينا بنعمة الخلق والإيجاد. وأنزل القرآن الكريم لإصلاح حال الخلق فى الأرض.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد. خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله ربه برسالة الحق.

أما بعد

فإن كتاب « الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » للحافظ المحدث الإمام الحكيم الترمذى. من كتب التراث التى تهتم بالإنسان، وبحركته فى الحياة.

والفروق بين الصدر، والقلب، والفؤاد، واللب. قلما يتنبه لها أحد. مع أن معرفة هذه الفروق أمر يهم الباحثين فى الإنسان. لأن فهم الإنسان فهماً صحيحا يقتضى معرفة ماله من خصائص.

فالصدر فى كتاب الحكيم الترمذى مرتبط بنور الإسلام.

والقلب مرتبط بنور الإيمان.

والفؤاد مرتبط بنور المعرفة.

واللب مرتبط بنور التوحيد.

وقد لا يخفى على أحد: أن فهم هذه الأمور ينمى الوعى الإيمانى، ويزيد الإنسان ثقافة، ويجعله أكثر تفتحا وانطلاقا.

لهذا كان علينا أن نقرأ تراثنا الأصيل، ونتعمق ما جاء فيه. بكل اتجاهاته وأفكاره. لأن فى تلك القراءة. عوامل ثقافية بانية. تنقل الإنسان من

الاغتراب الزمانى والمكانى. إلى عالم أوسع، يستطيع فيه الإنسان المثقف أن يكون مؤثراً ومفيداً للإنسانية، وللمجتمعات المختلفة.

ويبدو لى أن مهمة إبراز هذا التراث الضخم تقع على عاتق العلماء والباحثين لأنه قد آن الأوان لربط حاضر الأمة بماضيها المشرق.

ومن يتأمل مصنفات الحكيم الترمذى أعماقا وأبعاداً يدرك جهود هؤلاء العلماء، كما يدرك مدى حرصهم على سلامة وأمن مجتمعاتهم.

ولذلك كانت ثقافتهم تعمل لترشيد الإنسان، والأخذ به إلى المسار الصحيح.

وقد تقع عيناك وأنت تقرأ فى كتب التراث. على عبارة لا ترضاها. لأنها لا توافق ما أنت فيه. لكن الا ترى أن هذه العبارة دلت على أن الناس كانوا يتميزون بالسماحة، والتفتح الواعى، والرؤية الواضحة.

وقد كان علماء الأمة يحترمون رؤى الآخرين، ويقدرون بعضهم حق التقدير. وما كان لهم من توجيه وتصحيح وإضافة. لجد أنه اتسعت له الكتب كما اتسعت صدورهم بالاحترام.

ولا شك أن وقتا يقضيه الإنسان قارئا وباحثاً. يستحق كل عناية واهتمام.

وإن أمةً تخطو إلى مجد مشرق ـ بمشيئة الله ـ لابد وأن تتعلق بالأصالة، وما يساهم فى إعطاء الإنسان ما يستحقه.

الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح،

الحكيم الترمذى

الحافظ: أبو عبد الله محمد بن على
الحكيم الترمذى

يعتبر الحكيم الترمذى. من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى. كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة.

ظهر الحكيم فى فترة كانت أحوج ما يكون إلى الحكيم.

وقد ولد الحكيم: أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى، فى العشر الأولى من القرن الثالث الهجرى الموافق للقرن التاسع الميلادى.

وكان والد الحكيم من رواة الحديث النبوى. رحل فى طلبه، واشتغل بروايته. ترجم له الخطيب البغدادى. وذكر أنه نزل بغداد.

وقد روى الحكيم الترمذى كثيراً من الأحاديث النبوية فى كتبه المتعددة عن والده.

وكانت أم الحكيم كذلك من أهل الحديث. فقد روى عنها الحكيم فى كتابه «الرد على المعطلة» وكذلك جده لأمه كان من أهل الحديث.

لقد فتح الحكيم الترمذى عينيه على حلقات العلم وروايات الحديث والدروس العلمية. منذ بدأ يعقل.

لأن أباه كان أحد علماء الفقه بجانب رواية الحديث. وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف ويحمله على ذلك فى وقت مبكر. حتى امتلأ وهو منذ الصبا الباكر. بالإقبال على مذاكرة العلوم وتحصيلها. شأن النابهين.

وحسبك بيت علم ينشأ فيه الحكم. فتلتقط أسماعه أول ما تلتقط أيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يهتف بها أبوه كما تهتف بها أمه.

ولهذا كان لكتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة النبى محمد عليه الصلاة والسلام السلطان على اتجاهات الحكيم وتفكيره، ومصنفاته.

وقد أخذ الحكيم الترمذى عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره والذى يستتبع شيوخه من المحدثين الذين روى عنهم يجد أنهم كثرة.

وأبو بكر الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ يقول عن الحكيم: «إنه فيمن صنف فى المعاملات، وأحد الأعلام المشهورين، المشهود لهم بالفضل. الذين جمعوا علوم المواريث، والاكتساب، وسمعوا الحديث، وجمعوا الفقه، والكلام. واللغة، وعلم القرآن»..

والسلمى المتوفى سنة ٤١٢هـ يذكره بأنه : «من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة»..

وأبو نعيم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . يقول عنه فى كتابه «حلية الأولياء»: «إنه مستقيم الطريقة، يرد على المرجئة، وغيرها من المخالفين، تابع للآثار ..»..

والقشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ يقول عنه : « إنه من كبار الشيوخ وله تصانيف فى علوم القرآن»..

والهجويرى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ يقول عنه : «محمد در يتيم، لا قرين له. وله إسناد عال فى الأحاديث »

ويقول عنه السبكى فى كتابه: «طبقات الشافعية» : «المحدث الزاهد أبو عبد الله الترمذى. صاحب التصانيف»..

ويذكره ابن حجر فى «لسان الميزان» بقوله: «إنه كان إماماً من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار، فى أصول الدين، ومعانى الحديث وقد لقى الأئمة الكبار»..

والذهبى فى «تذكرة الحفاظ» يقول عنه: «الزاهد، الحافظ، المؤذن، صاحب التصانيف».

والشيخ زكريا الأنصارى . يقول عن الحكيم: «إنه صاحب التصانيف المشهورة، اشتهر بملازمة العبادة، وتفرد بكثرة الرواية، وعلو الإسناد، رحل فى طلب العلم والحديث، لقى الأكابر، وأخذ عن أرباب المحابر، وهو من أقران البخارى». .

وابن الجوزى فى كتابه: «صفة الصفوة» يقول عنه : «إنه من كبار مشايخ خراسان، له التصانيف المشهورة».

وذكر الحكيم الترمذى بكل تقدير وإجلال كثير من المؤرخين، ومشايخ الإسلام كالمناوى، ودار شكواه، وطاش كبرى زاده، والزركلى، وغيرهم من علماء الأمة.

لقد كان رحمه الله صاحب فكرة واسع ، ومنهج محدد فى رسم الصورة المثلى للرقى الإنسانى.

ولقد انتشرت مصنفاته الكثيرة بين الناس، وأخذ عنها العلماء المتبحرون.

ولقد تأكد لى ـ وأنا أعد رسالة العالمية «الدكتوراه» بجامعة الأزهر. وكانت الرسالة تحت عنوان: «السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية» أن كثيراً من المصنفين الكبار نقلوا من كتبه الكثير. مثل: القرطبى، والسيوطى، وأبو هلال العسكرى، والغزالى، وغيرهم. مما يدلك على مكانته العلمية.

كتاب: الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

- كتاب الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب. من الكتب التى تفرد فى تصنيفها الحكيم الترمذى.

- وهذا الكتاب توجد مخطوطته الوحيدة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٣٦٧ فهرس الكتب العربية الجزء الأول ص ٣٤٥ طبع ١٩٢٤م وفى خزانة المكتب الهندى بلندن نسخة مصورة من هذه المخطوطة برقم ١٩ روتو.

- والكتاب قيم فى موضوعه. وكان الحكيم الترمذى يعنى بهذه الفروق وله كتاب أخر نعمل بمشيئة الله على تحقيقه جاء تحت عنوان: «الفروق ومنع الترادف».

- والحكيم الترمذى فى كتابه «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» انطلق من القرآن الكريم . ولذلك تجده فى كل حالة يذكر الأيات القرآنية المناسبة.

ومما جاء فى كتاب «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب».

- أن انشراح الصدر والضيق إنما يضاف إلى الصدر ولا يضاف إلى القلب والصدر موضع الغل والجناية. لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية فى الصدر بالدخول. وهو من جهة الابتلاء..

- والعمى والبصر يضاف إلى القلب ولا يضاف إلى الصدر. وهذا هو الطريق الظاهر. وأما من جهة مجاز اللغة وتعارف الناس ربما يعبر بلفظه الصدر عن القلب.

- وكل علم لا يوصل إليه إلا بالتعلم والتحفظ والاجتهاد والتكلف من جهة السمع. فإن موضعه الصدر.

- واسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب.

وكتاب الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب. تجد شيئا منه في كتاب «حقيقة الأدمية كتاب الرياضة في تعلق الأمر بالخلق» والذى قمت بتحقيقه والتعليق عليه بالصورة المرجوة - كما بدا لى - وقد كان أول عمل فى هذا الكتاب أن قمت بنسخه. ثم راجعت نصوص الكتاب على مصنفات الحكيم الترمذى الكثيرة.

وبينت أرقام الأيات القرآنية وأسماء سورها.

وغزوت الأحاديث النبوية إلى مصادرها. ما أمكن ذلك.

وكان العمل يقتضى التعليق على كثير من النصوص التى تحتاج إلى زيادة بيان.

وقد صححت كثيراً من التصحيفات والأخطاء ويبدو أنها من الناسخ وكان علينا أن نقف عندها طويلاً.

وقمت بعمل فهرس للأيات القرآنية. وفهرس للأحاديث النبوية. وفهرس للأثار والأخبار.

كل ذلك لتتم الفائدة.

الدكتور/ احمد عبد الرحيم السايح

بيان الفرق

بين الصدر والقلب والفؤاد واللب

للحافظ

أبى عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى
ت ٣٢٠ هـ

تحقيق وتعليق

الدكتور/ أحمد عبدالرحيم السايح

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى : أما بعد.

فإن بعض أهل العلم، والفقه. سألنى[1] عن بيان الفرق بين الصدر، والقلب، والفؤاد، واللب، وما وراءها من الشّغاف[2]، ومواضع العلوم.

وأحب أن أشرح له بتوفيق[3] الله تعالى . .إذ هو ميسر كل عسير[4]، وبه أستعين[5].

---

(١) قد يكون هناك سائل قد سأل الحكيم الترمذى. عن بيان الفرق بين الصدر، والقلب، والفؤاد، واللب. خاصة أن العلماء آنذاك كانوا يُستفتون فيُفتون.

وقد لا يكون هناك سائل أصلاً قد سأل. وإنما عادة العلماء جرت حين يصنفون رسائل تبدو لهم موضوعاتها. يرون أن يذكروا أن سائلاً سأل. وذلك ليكون التأليف له وقع أكثر.

(٢) الشغاف: الشغاف غلاف القلب. قال الله تعالى فى سورة يوسف: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾. أى أوصل الحب إلى شغاف قلبها.

(٣) وأحب أن أشرح له بتوفيق الله تعالى: أى أبين وأوضح للسائل المراد من القلب، والصدر، والفؤاد، واللب. برعاية الله وتوفيقه، وتيسيره.

(٤) إذ هو ميسر كل عسير. قال تعالى فى سورة الانشراح: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

(٥) الاستعانة تكون بالله.

الفصل الأول

[فى مقامات القلب]

اعلم. زادك الله فقها فى الدين(١). أن اسم القلب(٢) اسم جامع، يقتضى مقامات الباطن كلها(٣).

وفى الباطن مواضع: منها ما هى من خارج القلب. ومنها ما هى من داخل القلب. فأشبه اسم القلب اسم العين.

إذ العين اسم يجمع ما بين الشفيرتين من البياض، والسواد، والحدقة، والنور، الذى فى الحدقة.

وكل واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة، ومعنى غير معنى صاحبه، إلا أن بعضها معاونة لبعض، ومنافع بعضها متصلة ببعض.

وكل ماهو خارج فهو أساس الذى يليه من الداخل. وقوام النور بقوامهن. وكذلك اسم الدار اسم جامع لما يحفظ بحيطانها من الباب، والدهليز، وصحنها فى بيوتها، وما فيها من المخادع، والخزانة. وكل مكان وموضع فيها له حكم غير حكم صاحبه.

---

(١) دعاء بالتفقه فى الدين. انطلاقا من قول الرسول ﷺ : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين». والفقه فى الدين هو الأسلوب الأمثل للوعى الدينى. وهو ضرورة حياتية.

(٢) القلب : سمى لأنه أخلص شئ فى الإنسان وأرفعه. وخالص كل شئ وأشرفه قلبه. ويقولون عربى القلب. قال:

فلا تكثروا فيها الضجاج فإننى * تخيرتها منهم زبيرية قلبا

(٣) مقامات الباطن داخلة فى القلب. وكل واحد من هذه المقامات مرتبط بأحد أنوار الله.

فالصدر مرتبط بنور الإسلام. والقلب وهو من داخل الصدر مرتبط بنور الإيمان. والفؤاد مرتبط بنور المعرفة. واللب مرتبط بنور التوحيد.

والمقامات مفردها مقام. وهو اسم موضع.

وكذلك اسم الحرم[1] اسم جامع للحرم، من حوالى مكة، والبلد، والمسجد، والبيت العتيق. وفى كل موضع مناسك غير ما يكون فى الموضع الآخر.

وكذلك اسم القنديل اسم جامع للزجاجة . وفى القنديل موضع الماء غير موضع الفتيلة، وموضع الفتيلة غير موضع الماء. . وهو داخل موضع الماء. والفتيلة هى التى يكون فيها النور، وفى موضع الفتيلة دهن ليس فيه ماء، وصلاحه بصلاح هذه الأشياء كلها. إذا نقص منها واحد فسد ما سواه.

وكذلك اسم اللوز اسم جامع للقشر الخارج الذى فوق القشر الصلب، والقشر الثانى الذى هو مثل العظم، والمخ، واللب الذى فيه، والدهن الذى فى داخل اللب.

فاعلم. زادك الله فقها فى الدين[2]. أن لهذا الدين أعلاماً ومنازل. ولأهله فيه مراتب. وأهل العلم فيه على درجات.

قال الله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[3].

وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[4]

وكل علم هو أرفع فموضعه فى القلب هو أكن[5]، وأخص، وأحرز، وأخفى، وأستر. ولكن ذكر اسم القلب ينوب عن ذكر سائر المقامات عند عامة الناس.

---

(١) يروى فى تسميته بالحرم أقوال:
- أن الله حرم التعرض له، والتهاون به، وجعل ما حوله حرما لمكانه.
- أنه كان ولم يزل ممتنعا عزيزا يهابه كل جبار.
- أنه حرم على الطوفان. أى امتنع منه. كما سمى عتيقا لأنه أعتق منه.
- أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل.
- حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها.

(٢) فاعلم زادك الله فقها فى الدين: دعاء من الحكيم لترمذى لمن يتعلم أن يزيده الله فقها فى الدين.

(٣) سورة الزخرف. الآية رقم ٣٢.

(٤) سورة يوسف. الآية رقم ٧٦.

(٥) أكن: الهمزة، والكاف، والنون ليست أصلاً. . وذلك أن الهمزة فيه، مبدلة من واو . والأصل : «وكنة» وهو عش الطائر. يقولون لعش الطائر «وكنة» ويجمع «وكنات» ويقولون «توكن» فى معنى «تمكن».

ولكن الصدر فى القلب. هو فى المقام[1] من القلب بمنزلة بياض العين فى العين. ومثل صحن الدار فى الدار، ومثل الذى يحوط بمكة، ومثل موضع الماء فى القنديل.

فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والأفات. كما يعيب بياض العين آفة البثور، وهيجان العرق، وسائر علل الرمد. وكما يوضع فى صحن الدار من الحطب، والقماشات. ويدخل فيها كل أحد من الأجانب أحياناً وكما يدخل السباع، والبهائم، فى ساحة الحرم. وكما يقع فوق الماء فى القنديل الفراش وغيره. وإن كان فوق الماء دهن فأسفل موضعه الماء. وكما تدب القملة، والبعوض، والذباب فى قشر اللوز الذى هو أعلى إذا انشق حتى صارت الهوام الصغار يدخلن فيه.

والذى يدخل فى الصدر قلما يشعر به فى حينه. وهو موضع دخول الغل والشهوات، والمنى، والحاجات. وأنه يضيق أحياناً، وينشرح أحياناً. وهو موضع ولاية النفس الأمارة بالسوء. ولها فيه مدخل، وتتكلف أشياء، وتتكبر، وتظهر القدرة من نفسها.

وهو موضع نور الإسلام[2]. وهو موضع حفظ العلم المسموع، الذى يتعلم من علم الأحكام، والأخبار. وكل ما يعبر عنه بلسان العبارة، ويكون أول سبب الوصول إليه التعلم، والسمع.

وإنما سمى صدراً [3] لأنه صدر القلب. وأول مقامه كصدر النهار الذى هو أوله، أو كصحن الدار الذى هو أول موضع منها.

ويصدر منه وساوس الحوائج، وفِكَر الاشتغال تصدر منه إلى القلب أيضا إذا استقرت وطالت المدة.

---

(١) ولكن الصدر فى القلب هو فى المقام من القلب. إشارة إلى ارتباط الصدر بالقلب وإن هذا الارتباط له المكان الأرفع.

(٢) وهو موضع نور الإسلام : أى الصدر.

(٣) الصدر للإنسان. والجمع صدور. قال الله تعالى :﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وأما القلب فهو المقام الثانى فيه. وهو داخل الصدر. وهو كسواد العين الذى هو داخل العين. وهو البياض.

وكبلد مكة الذى هو داخل الحرم، وكموضع الفتيلة من القنديل، وكالبيت داخل الدار، وكاللوز داخل القشر الأعلى.

وهو معدن نور الإيمان، ونور الخشوع، والتقوى، والمحبة، والرضا، واليقين، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة.

وهو معدن أصول العلم. ولأنه مثل عين الماء. والصدر مثل الحوض. يخرج من العين إليه الماء كالصدر يخرج من القلب إليه العلم. أو يدخل من طريق السمع إليه.

والقلب يهيج منه اليقين، والعلم، والنية حتى يخرج إلى الصدر.

فالقلب هو الأصل، والصدر هو الفرع. ،إنما يتأكد بالأصل الفرع . كما قال رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[1].

ففسر رسول الله ﷺ أن العمل الذى تعمله النفس إنما يرتفع مقداره بنية القلب. وتُضاعفُ الحسنة على قدر النية. والعمل للنفس، ومنتهى ولايتها إلى الصدر بنية القلب وولايته.

والقلب فى يد النفس رحمة من الله تعالى. لأن القلب هو الملك، والنفس هى المملكة. كما قال رسول الله ﷺ : «واليد جناح، والرجلان بريد، والعينان مصلحة، والأذنان قمع، والكبد رحمة، والطحال ضحكة، والكليتان مكر، والرئة نفس، فإذا صلح الملك صلحت جنوده، وإذا فسد الملك فسد جنوده»[2].

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله وسوله. ومن كانت هجرته إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وأخرجه مسلم برقم (١٩٠٧) وأبو داود برقم (٢٢٠١) والترمذى برقم (١٦٤٧) وابن ماجة برقم (٢٤٢٧) والنسائى (جـ١ ص ٥٨ - ٦٠) وجزء (٦ ص ١٥٨ - ١٥٩) وجزء (٧ ص ١٣). ومالك فى الموطأ (ص ٤٠١) وأحمد فى المسند (جـ١ ص ٢٥ و ٤٣) وابن منده فى الإيمان.

(٢) انظر: علاء الدين الهندى كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال جزء أول حديث رقم (١٢٠٦ - ١٢٠٧).

فبين رسول الله ﷺ : أن القلب ملك. فالصدر للقلب كالميدان للفارس.

وبين عليه السلام: أن صلاح الجوارح بصلاح القلب، وفسادها بفساد القلب[١]. فالقلب بمنزلة السراج. وصلاح السراج بالنور. وذلك النور نور التقى واليقين. لأنه إذا خلا عن هذا النور كان القلب بمنزلة مسرجة، طفىء نور سراجها. وكل عمل جاء من النفس من غير قلب. فإنه ليس بمعتبر فى حكم الآخر، وليس بمؤاخذ صاحبه إن كان معصية، ولا مثاب إن كان طاعة. كما قال الله تعالى: ﴿ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾[٢].

ومثل الفؤاد فى القلب. وهو المقام الثالث. كمثل الحدقة، فى سواد العين، وكمثل المسجد الحرام فى داخل مكة، وكمثل المخدع والخزانة فى البيت، وكمثل الفتيلة فى موضعها وسط القنديل، وكمثل اللب فى داخل اللوز.

وهذا الفؤاد موضع المعرفة، وموضع الخواطر، وموضع الرؤية، وكلما يستفيد الرجل، يستفيد فؤاده أولاً. ثم القلب.. والفؤاد فى وسط القلب. كما أن القلب فى وسط الصدر. مثل اللؤلؤة فى الصدف.

ومثل اللب فى الفؤاد. كمثل نور البصر فى العين، وكمثل نور السراج فى فتيلة القنديل. وكمثل الدهن المكنون فى داخل لب اللوز.

وكل واحد من هذه الأشياء الخارجة وقاية، وستر للذى يليه من الداخل.

وكل واحد منهن يشاكل[٣] الباقيات الآخر.

---

(١) يدل على ذلك قول الرسول ﷺ «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. الا وإن لكل ملك حمى الا وإن حمى الله محارمه. الا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب».
والحديث أخرجه البخارى، ومسلم، وابن ماجة، وأحمد، والدارمى.

(٢) سورة البقرة. الآية رقم ٢٢٥ .

(٣) الشين، والكاف، واللام. معظم بابه : المماثلة.
تقول: هذا شكل هذا. أى مثله. ومن ذلك يقال أمر مشكل كما يقال أمر مشتبه. أى هذا شابه هذا. وهذا دخل فى شكل هذا.

فهى أشكال متعاونات، قريبة المعانى، بعضها من بعض، موافقات غير مخالفات لأنها أنوار الدين، والدين واحد. وإن كان مراتب أهله تختلف، وتتنوع.

وهذا اللب موضع نور التوحيد، ونور التفريد. وهو النور الأتم، والسلطان الأعظم.

وبعد هذا مقامات لطيفة، وأمكنة شريفة، ولطائف ظريفة، والأصل لهن جميعا نور التوحيد.

فالتوحيد سر، والمعرفة بر، والإيمان محافظة السر، ومشاهدة البر، والإسلام الشكر على البر، وتسليم القلب للسر.

لأن التوحيد سر بهداية الله تعالى للعبد، ودلالته إياه عليه. لم يكن العبد يدركه بعقله لولا تأييد الله تعالى، وهدايته له.. ، والمعرفة برٌ من الله تعالى له. إذ فتح الله له باب الألاء[1]، والنعماء، مبتدئاً من غير استحقاق من العبد لذلك، ومنَّ عليه بالهدى حتى آمن بأن هذا كله من الله تعالى، منَّه عليه نعمة ومنةً، لا يقدر على شكره إلا بتوفيق الله.

وذلك أيضا نعمة جديدة منه عليه، فهو يشاهد بر الله، ويحافظ سره، إذ هو الموفق.

لأنه لا يدرك كيفية ربوبيته. فعلم أنه واحد. ويجتنب التشبيه، والتعطيل، والتكييف، والتجنيف[2].

---

(١) الألاء: النعم.

(٢) يشير الترمذى إلى ما ينبغى أن يكون من الإيمان. فأهل السنة يؤمنون بصفات الله إيماناً خاليا من التشبيه، والتعطيل، والتكييف، والتجنيف.

والإيمان الخالى من التشبيه: أى من تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله سبحانه وتعالى.

والتعطيل: هو نفى الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذات الله سبحانه.

والتكييف: هو أن تذكر كيفية صفة. ويقال: كيف. يكيف. تكييفا. أى ذكر كيفية صفة. والتكييف يسأل عنه بكيف. وأهل السنة لايكيفون صفات الله.

والتجنيف: الميل. يقال: جنف إذا عدل، وجار. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ البقرة الآية رقم ١٨٢. ويقال: رجل أجنف إذا كان فى خلقه ميل. ويقال: تجانف عن كذا إذا مال. قال:

تجانف عن جل اليمامة ناقتى

وما عدلت عن أهلها لسوائك

فهذا هو الإيمان الذى هو يشاهد البر، ويحافظ السر.

وإن الإسلام هو استعمال النفس فى بر الله. بطاعته بالشكر، والاستقامة وتسليم الربوبية إليه[1]، والإعراض عن إدراك السر، والإقبال إلى العبودية، والدوام على ما يقر به إليه.

لأن الإسلام إنما يقام بالنفس. والنفس هى عمياء عن إدراك الحق ومشاهدته. ولم يكلف النفس إدراك الحقائق.

ألا ترى.. أن العبد أمر بالإيمان بالقلب، ولم يكلف بإدراك ما آمن، من جهة الكيفية. إنما عليه الاتباع، والفرار من الابتداع[2]. ويكفى من النفس التسليم فحسب.

والمقامات المسكوت عنها التى وراء هذه المقامت المذكور بعضها إنما يبصرها عبد موفق بفهم هذه المقامات الموصوفة بهذه الأمثال المعروفة. يعينه الله تعالى ويؤيده ليفهمها.. وتكون هذه المقامات التى وراء هذه المذكورات كزيادة صفو الماء. إذا لبث فى الآنية.

فبهذه الأمثال يدرك السر المسكوت عنه.

---

(١) تسليم الربوبية إليه: إفراد الله سبحانه وتعالى فى الخلق، والملك، والتدبير. قال تعالى: «الا له الأمر والخلق» وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

(٢) الابتداع من البدعة. والبِدعة فى اللغة: هى الأمر المستحدث كما قال تعالى: «قل ماكنت بدعا من الرسل».

والبدعة فى اصطلاح العلماء: هى الأمر المستحدث فى الدين. وهى:

١- بدعة حقيقية. وهى ما استحدث فى الدين أصلاً ووصفا.

٢- وبدعة إضافية. وهى ما استحدث فى الدين بوصفه دون أصله.

والبدع الحقيقية والإضافية مذمومة شرعاً.

الفصل الثاني

[فى الصدر]

وإن المؤمن قد ابتلى بالنفس وأمانيها. وأعطيت النفس ولاية التكلف بالدخول فى الصدر.

والنفس معدنها فى الجوف وموضع القرب. وهيجانها من الدم وقوة النجاسة. فيمتلىء الجوف من ظلمة دخانها، وحرارة نارها. ثم تدخل فى الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من الله إياه. حتى يستعين العبد بصدق افتقاره ودوام تضرعه لمولاه.. فيجيبه الله تعالى، ويصرف عنه شرها.

وكذلك الشيطان يدخل بوسوسته فى صدر العبد. وهو آخر ولاية حد النفس. لأن النفس الأمارة بالسوء شكل الشيطان. وهما شيطانان قال الله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [(1)] الآية.

وإن الله جل وعلا رحم عبده المؤمن حيث لم يجعل قلبه فى يد نفسه. وإنما هو برحمته يتولاه، ويبتليه بدخول الشيطان ووسوسته فى صدره، ليعلمه قليلاً من حقارة قدره، ويريه تمام فقره.

وتصديق ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾[(2)].

يعنى. والله أعلم بوساوس الشيطان والنفس ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[(3)]. وهو طهارة القلب بنور الإيمان. وقال جل وعز: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[(4)].

---

(1) سورة الأنعام: الآية رقم ١١٢. والآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

(2) سورة آل عمران. الآية رقم ١٥٤.

(3) سورة آل عمران. الآية رقم ١٥٤.

(4) سورة الناس. الآية رقم ٥.

اعلم. أن انشراح الصدر والضيق[1]، إنما يضاف إليه ولا يضاف إلى القلب. قال الله تعالى: ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[2].

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾[3].

وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾[4].

وأخبر عن كليمه موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾[5].

فأضاف الله الضيق إلى الصدر. وضيق صدر النبى عليه السلام، وصدر الكليم. لا يكون من جهة الوسواس الذى يكون لعامة المسلمين، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عصمهم ربهم من وسواس الشيطان، ومنازعات النفوس. ولكن كانت تضيق صدورهم إذا سمعوا الكفار يذكرون لله شريكا، أو يكذبونهم إذا ذكروا وحدانية الله تعالى ولا غاية لضيق الصدر إذا ضاق.

وصدر كل واحد يضيق على قدر جهله، وغضبه.

وكذلك لا غاية لسعته إذا انشرح بهدى الله تعالى.

فإذا ضاق عن الحق اتسع للباطل، وإذا ضاق عن الباطل اتسع للحق ألا ترى إلى ما ذكر الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[6].

فمنَّ الله بشرح صدره بأنوار حق الإسلام، حتى ضاق صدره عن وسع الباطل[7].

---

(١) أصل الشرح: بسط اللحم ونحوه. يقال شرحت اللحم وشرّحته. ومنه. شرح الصدر . أى بسطه بنور إلهى وسكينة من جهة الله وروح منه. «انظر معجم مفردات ألفاظ القران للعلامة الراغب الأصفهانى».
وأصل الضيق ضد السعة. ويقال: الضيق أيضا والضيقة : يستعمل فى الفقر، والبخل، والغم، ونحو ذلك..

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم ٢.

(٣) سورة هود. الآية رقم ١٢.

(٤) سورة الحجر. الآية رقم ٩٧.

(٥) سورة الشعراء. الآية رقم ١٢، ١٣.

(٦) سورة الانشرح. الآية رقم ١.

(٧) راجع القرطبى فى تفسيره.

وصدر المؤمن يضيق أحياناً من كثرة الوسواس، والغم، والشغل، وتتابع الحوائج، وبلوغ الحوادث، وإصابة المصائب.

ويضيق أيضاً إذا سمع باطلاً. فلا يحمل قلبه ذلك. لأن الله تعالى وسع صدره بنور الإسلام: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[1].

وأما صدر الكافر والمنافق. فإنه امتلأ من ظلمات الكفر، والشرك، والشك. واتسع لها فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام، وضاق عن وسع نور الحق فيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[2].

وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[3].

فبين الله تعالى. أن الصدر إذا امتلأ من ظلمات الكفر ضاق عن وسع أضدادها من الأنوار.

وصدر المؤمن مكان نور الإسلام فيه.

والإسلام اسم جامع لدين الله تعالى، ويضيفه للعبد أيضاً لقوله عليه السلام: «الإسلام إقرار باللسان، وعمل بالأركان، مع تصديقه بالإيمان، ومشاهدته بعض صنائع الرحمن»[4].. كما أن العين، والحرم، والدار، والقنديل، واللوز. أسماء جامعة.

والإسلام اسم عام يشتمل على الإيمان، والقول باللسان، والعمل بالأركان[5].

---

(١) سورة الزمر الآية رقم: ٢٢.

(٢) سورة النحل. الآية رقم ١٠٦.

(٣) سورة الأنعام. الآية رقم ١٢٥.

(٤) لم نقف على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مراجع. وقد يكون من رواية الحكيم الترمذي.

(٥) قال ابن القيم:

واشهد عليهم أن إيمان الورى * قول وفعل ثم عقد جنان.

فالإيمان تصديق بالجنان، وعمل بالأركان، وقول باللسان. ويقول الشافعي في كتابه «الأم»: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول، وعمل، ونية.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة.

ولكن الإسلام له ظاهر وباطن. فظاهره ربما حمله المنافق، وشرك أهل الإسلام فيه ظاهراً، وهو فى الباطن كافر.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(١).

فبين الله تعالى أنهم لم يؤمنوا بعد إلا أنهم أسلموا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم.

وأما باطن الإسلام فهو الانقياد لرب الأنام، وتسليم النفس، والقلب لما يجرى عليه من الأحكام. قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٢).

فهذا هو المسلم حقا الذى يشاكل نور إسلامه نور الإيمان ونور الإحسان فتعاونت، وتواصلت، وتشاكلت.

قال الله تعالى فى قصة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾(٣).

وفى قصة إبراهيم: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾(٤).

فهؤلاء خاصة الله، طلبهم الله بالاستقامة على حقيقة الإسلام. وهو أنهم تبرءوا من حولهم وقوتهم. فأسلموا ظاهرهم وباطنهم لله.

والدليل على أن الإسلام والإيمان. وإن كانا مختلفى الإسمين فهما شكلان فى المعنى. قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الحجرات. الآية رقم ١٤.
(٢) سورة البقرة. الآية رقم ١١٢.
(٣) سورة المائدة. الآية رقم ٤٤.
وجاء فى مفردات القرآن للأصفهانى: الذين أسلموا أى الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولى العزم لأولى العزم الذين يهتدون بأمر الله، ويأتون بالشرائع.
(٤) سورة الصافات. الآية رقم ١٠٣
(٥) سورة يونس. الآية رقم ٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية (٢).

والإيمان على تعارف العامة وعلى وجه الشريعة: هو التصديق بالحق وقبوله بالقلب، والإقرار باللسان أنه حق.

والإسلام هو الانقياد للحق بالنفس، والقلب، والإقبال إليه، والاستقامة عليه، والاجتناب عما يخالفه.

والصدر أيضا موضع الغل والجناية. لأن النفس ذات غل وجناية. ولها ولاية فى الصدر بالدخول. وهو من جهة الابتلاء. وقد ذكر فيما تقدم. قال الله تعالى فى صفة أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٣). حتى يدخلوا الجنة بلا غل.

وقلب المؤمن محفوظ من الغل. لأنه موضع الإيمان. إلا أن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه ويسألوه أن لا يجعل فى قلوبهم غلا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٤).

وأحبَّ أن يدعوه، ويخافوه ليطهر قلوبهم.

---

(١) سورة القصص. الآية رقم ٥٣.

(٢) سورة الذاريات. الآية رقم ٣٥، والآية ٣٦. وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ولا يخفى: أن الناس فى مسمى الإسلام. على ثلاثة أقوال:

- فطائفة: جعلت الإسلام هو الكلمة.
- وطائفة: اجابوا بما أجاب النبى ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان. حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة. والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة.
- وطائفة: جعلوا الإسلام رادفا للإيمان.

وإذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام.

وإذا أفرد اسم الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنا بلا نزاع.

«انظر شرح العقيدة الطحاوية (جـ٢ ص ٤٨٨ ، ٤٨٩) ط مؤسسة الرسالة»

(٣) سورة الأعراف. الآية رقم ٤٣. وسورة الحجر. الآية رقم ٤٧.

(٤) سورة الحشر. الآية رقم ١٠.

ولم يضمن لهم حفظ صدورهم من الوسواس، ليعرفوا منَّة الله عليهم، ويحفظ قلوبهم ليستغيثوا إليه من وساوس الصدور، ليزدادوا عزًا وشرفاً بالله. إذا طهر قلوبهم ومحصها[1]. ويزدادوا ذلاً فى أنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[2].

فبين الله أن الشفاء يكون للصدور التى هى موضع الغل.

وقال أيضا: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[3]. فقلب المؤمن سليم، وصدره سليم. وقلب الكافر والمنافق ميت وسقيم، وصدره فيه ظلم عظيم.

قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[4].

وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5].

وقال: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[6].

واعلم. أن كل علم لا يوصل إلا بالتعلم، والتحفظ، والاجتهاد، والتكلف. من جهة السمع والخبر. قرآناً كان أو حديثاً، أو غيره. فإن موضعه: الصدر. ويجوز عليه حكم النسيان.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[7]. وهو العلم الذى تتهيأ عبارته، وقراءته، وروايته، وبيانه.. ويمكن فى صاحبه النسيان. لأن النفس هى التى تحمله، وتحفظه. وهى مطبوعة على النسيان. فربما ينساه بعد التحفظ، وبعد جهد كثير.

---

(١) التمحيص: التنقية. قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(٢) سورة التوبة. الآية رقم ١٤ ، ١٥.

(٣) سورة يونس. الآية رقم ٥٧.

(٤) سورة البقرة. الآية رقم ١٠ وسورة المائدة. الآية رقم ٥٢.

(٥) سورة لقمان. الآية رقم ١٣. ويذكر العلماء: أن الشرك ضربان:

احدهما: الشرك العظيم. وهو إثبات شريك لله تعالى. يقال أشرك فلان بالله. وذلك أعظم كفر.

وثانيهما: الشرك الصغير. وهو مراعاة غير الله معه فى بعض الأمور. وهو الرياء، والنفاق.

(٦) سورة غافر. الآية رقم ٥٦.

(٧) سورة العنكبوت. الآية رقم ٤٩.

والصدر فى هذا المعنى كظهر القلب. يقال: فلان يقرأ عن ظهر قلبه.
ومع هذا الجهد ربما غلط، وسها، وشك فى محفوظه.
والصدر أيضا من القلب كالصدفة من اللؤلؤة. ربما دخل فى الصدفة شئ غير اللؤلؤة. مثل الماء وما يشبهه. ثم يخرج منها.
[وليس فى اللؤلؤة موضع غير يدخل فيها شئ. اللهم إلا أن يرفع فحينئذ يصير موضعه خاليا يسع فى مكانها شئ آخر][1].

(١) تبدو العبارة غير واضحة. ولعل المراد: ليس فى الصدفة موضع غير موضع اللؤلؤة يدخل فيه شئ. إلا أن ترفع اللؤلؤة فحينئذ يصير موضعها خاليا يسع فى مكانها شيئا آخر.

الفصل الثالث

[فى القلب]

والعمى والبصر يضاف إلى القلب، ولا يضاف إلي الصدر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]. هذا هو الطريق الظاهر.

وأما من جهة مجاز اللغة، وتعارف الناس. ربما يعبر بلفظة الصدر عن القلب. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[2].

وقال: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[3].

وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[4].

وعنى بذلك القلب.

ولكن عنى بها كلها قلوب الكفار. لأن صدورهم وقلوبهم صادة موصدة[5]. لخلوها عن نور الهدى.

وهذا النوع من العلم. لا يستقر فى الصدر، ولا يتمكن فيه. إلا بعد التكرار، وجهد الاعتبار، والمواظبة عليه. لأنه مثل الطريق. وخاصة لما دخل فيه من الخارج مثل المسموع.

فأما ما خرج إليه. من داخل القلب، من لطائف الحكمة، وشواهد المنة، فاستقراره فى الصدر متمكن.

---

(١) سورة الحج. الآية رقم ٤٦.

(٢) سورة آل عمران. الآية رقم ٢٩.

(٣) سورة آل عمران. الآية رقم ١١٨.

(٤) سورة القصص. الآية رقم ٦٩.

(٥) الصد يؤول إلى إعراض وعدول. فالصد: الإعراض. يقال: صد، يصد. وتقول: صددت فلانا عن الأمر. إذا عدلته عنه «انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس».

وإنما لا تثبت فى الصدر هذه الأحوال. لأنه موضع ورود الأشغال، والحوائج لأنه كالفناء للبيت الذى فى الدار.

وقد يدخل فى الدار من الخدم، والحشم، والجيران، والأجانب، وغيرهم فى أوقات. ولا يدخل فى البيت الذى يدخل فيه صاحبه إلا ذو رحم، أو محرم، أو قريب، أو صديق.

وقد يعبر من جهة مجاز اللغة أيضا. بالنفس عن القلب. قال الله تعالى فى قصة عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ (١) يعنى: تعلم ما فى قلبى.

وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (٢) يريد به القلب.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها»(٣).

فبان لك: أن المراد من الحديث وساوس الصدور التى لا تستقر.

فأما ما استقر في القلب. فإنه يسأل عنه، ويحاسب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(٤).

وكل علم تحمله النفس، ويعيه الصدر. فإن النفس تزداد به تكبراً، وترفعاً، وتأبى قبول الحق.

وكلما ازدادت علماً ازدادت حقداً على الإخوان، وتمادياً على الباطل والطغيان.

قال رسول الله ﷺ : «إن لهذا العلم طغيانا كطغيان المال»(٥). واعلم. أن العلم إذا قل نفعه اشترى به صاحبه الثمن القليل، وأعرض عن طاعة الله.

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم ١١٦.

(٢) سورة البقرة. الآية رقم ٢٣٥.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه. راجع زاد المسير لابن الجوزى (جـ١ ص ٣٤٣).

(٤) سورة الإسراء. الآية رقم ٣٦.

(٥) لم نعثر عليه فيما لدينا من مصادر.

وهذا العلم إنما تعلمه لإقامة الشريعة، وتأديب النفس، وإصلاحها، ومنعها عن الجهل، ومعرفة حدود أحكام الدين، وقوام ظاهر الدين. وإنما تكثر منفعته، وتزداد، وتعظم إذا كشف الله له الباطن، علم القلب. وهو العلم النافع.

ألا ترى إلى ما قال رسول الله ﷺ: «العلم علمان: علم باللسان فذلك حجة الله على خلقه، وعلم بالقلب فذلك العلم النافع»(١).

وتعوذ رسول الله ﷺ فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع»(٢).

وقال أيضا ﷺ: نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب»(٣).

فهذا كله دليل على أن المسموع الذى يحمله. إنما هو حجة الله على النفس وهو يشترى به الدنيا، ويستغنى به عن الدين الذى هو أنفع له، ولا يعمل به حتى يكشف الله له من العلم النافع. وروى عنه عليه السلام أنه قال: «من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم»(٤).

ثم اعلم. أن القلب لا غاية لغور بحاره، ولا عدد لكثرة أنهاره.

ومثل الحكماء فى البحار كالغواصين. ومثلهم فى الأنهار كمثل السقائين والصيادين.

فكل يستخرج، ويجد منها على قدر ما يرزقه الله منها.

فمنهم من يُكشف له من جواهر معرفة عيوب الدنيا، وسرعة انقلابها، وكثرة غرورها، وقلة ثباتها، وتعجيل زوالها.. ويُكشف له من معرفة مكائد الشيطان، وأصناف وساوسه.

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه بإسناد حسن وابن عبد البر النمرى فى كتاب العلم عن الحسن باسناد صحيح. انظر فيض القدير (جـ١ ص ٣٩١). وانظر الترغيب والترهيب للمنذرى (جـ١ ص ٣٠).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه والترمذى والنسائى. وهو جزء من حديث. انظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى (جـ١ ص ٤٠ حديث رقم ٨٣).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير وأحمد فى المسند، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ١ ص ١٨٧) رجاله موثقون. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٤) ذكره الإمام السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» جـ٢ ص ٥١٣ ط بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

ومنهم من يكشف له من طريق معرفة مراتب أهل التقوى، ودرجات أهل العلم، ومكارم الأخلاق، وحسن معاملة الخلق عند مساؤيهم، واحتمال الأذى، والسخاوة بالدنيا، والإيثار على نفسه، كائناً من كان، وخوف النار، ومحاربة الشيطان، ومجاهدة النفس، ومخالفة هواها، ومتابعة الرسول وأصحابه، والتمسك بالسنة[1].

ومنهم من يكشف له من طريق التحدث بنعم الله، وذكر آلائه، ودفع بلائه، وكثرة عطائه، وجميل ستره، وطول حلمه، وعظيم عفوه، وسعة رحمته. وما أشبهها من هذا النوع.

ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة ما سبق له من الله فى أزليته، وقدمه، من ذكره إياه، ومن حسن نظره إليه، واجتبائه واختياره، واصطفائه، ولطائفه السابقة.

ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة الحقائق من أفعال الربوبية[2]. فيشاهد أثار قدرته فى الأشياء كلها، وجميل صنعه، وما أشبه هذا الجنس.

ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة عظمة الله، وجلاله، وكبريائه، وعظم قدرته، وحقارة قدر خلقه، فى جنب عظمته، ورؤية فقر الخلق، وضرهم، وفاقتهم، وحاجتهم إليه، وقوته، وغناه عنهم، وسعة خزائنه، وكفايته، وحسن عنايته فى أمورهم.

ومنهم من يكشف له من جهة رؤية التوفيق، وحلاوة المعرفة، والمحبة، ورؤية عصمته إياه من الضلالة، والكفر، والأهواء.

ومنهم من يكشف له من طريق مشاهدة فردانيته، ووحدانيته فقط. حتى لا يرى فى سره معه غيره، فيتلاشى قدر من دونه فى سره. حين يشاهد الله جل جلاله. فيرى قدمه، وكماله، وبقاءه. ويرى حدوث الخلق وفنائهم.

(١) أى الالتزام بسلوك الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) مشاهدة الحقائق من أفعال الربوبية: آثار قدرة الله عز وجل فى الأشياء.

وجميع هذه الوجوه ليس لبحارها غاية، ولا لجواهرها نهاية. وقد قال جل جلاله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

وهذه الوجوه كلها. ما يجرى منها على لسان الحكيم. كمثل البحر يموج منه الزبد. فينبذه البحر. فينتفع به الإنسان.

فكذلك الحكيم ما يجرى من الحكمة على اللسان، ويعبِّر للخلق على لسان البيان. كزبد يهيج من بحر القلب.

وزبد البحر ينتفع به من كان به رمد العين. فكذلك ينتفع من فى قلبه مرض حب الدنيا، ورمدت عينا قلبه، بقول الحكيم، ويشفى الله تعالى صدره مما فيه من الأمراض. من حب الشهوات، ومثله من الآفات.

فهذا طريق باطن العلم وظاهرة، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر. لأن أحد العلمين بيان الشريعة. وهو حجة الله تعالى على خلقه.

والآخر بيان الحقيقة التى وصفت بعضها. فعمارة القلب والنفس بهما جميعاً. وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة. وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر وهو علم الحقيقة.

والدليل على ذلك: أن صلاح الدين بصحة التقوى. وقد قال رسول الله ﷺ: «التقوى هاهنا»(٢) وأشار بيده إلى قلبه.

فمن اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن. فهو منافق.

ومن اتقى بالعلم الباطن. ولم يتعلم العلم الظاهر. ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق. وليس علمه فى الباطن علماً فى الحقيقة.

إنما هو وساوس يوحى بها الشيطان إليه.

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم ٢٦٩.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٦٣ ورقم ٢٥٦٤) وأخرجه البخارى (جـ١ ص ٤٠٤) وأبو داود برقم (٤٩١٧).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾[1].

وأما من كان مسلماً، مؤمناً، صالحاً، عارفاً، آمن بكتاب الله، وسنة رسوله، وتمسك بالشريعة، وعمل بها، واقتدى برسول الله ﷺ، واتبعه، واتبع الأئمة من أصحابه، وشاهد بقلبه مع الله تعالى على سبيل الافتقار، والافتخار به، ورؤية الاضطرار من نفسه، وترك الاختيار، وصحبة الملك العفار.

وقد وفقنى الله بمنته حتى بالغت فى الشرح، والبيان بين الصدر والقلب.

والقلب هو معدن نور الإيمان. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[2].

وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3].

وقال: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[4].

والقلب هو معدن التقوى، والسكينة، والوجل[5]، والإخبات[6]، واللين، والطمأنينة، والخشوع، والتحميص، والطهارة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾[7].. وأشار بالإلزام إلى قلوبهم.

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[8].

---

(١) سورة الأنعام. الآية رقم ١٢١.

(٢) سورة المجادلة. الآية رقم ٢٢.

(٣) سورة الحجرات. الآية رقم ٧.

(٤) سورة النحل. الآية رقم ١٠٦.

(٥) الوجل: استشعار الخوف يقال: وجل يَوْجل. وَجَلاً. فهو وَجِلٌ. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾. ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾. ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

(٦) الخبْت المطمئن من الأرض. وأخبت الرجل قصد الخبْت أو نزله نحو أسهل وأنجد. ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع. قال الله تعالى: «وأخبتوا إلى ربهم» وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أى المتواضعين. وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى تلين وتخشع.

(٧) سورة الفتح. الآية رقم ٢٦.

(٨) سورة الفتح. الآية رقم ٤.

وقال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[1].

وقال فى قصة الخليل عليه السلام: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

وقال: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾[3].

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾[4].

وأشار رسول الله ﷺ وسلم بالتقوى إلى قلبه[5].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[6].

وأصل التقوى فى القلب. وهى التقوى من الشك، والشرك، والكفر، والنفاق، والرياء.

وقال فى الطهارة: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾[7].

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[8].

وقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[9].

وقال فى الوجل: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[10].

وقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[11].

وقال فى الإخبات: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[12].

---

(١) سورة الفتح. الآية رقم ١٨.

(٢) سورة البقرة. الآية رقم ٢٦٠.

(٣) سورة المائدة. الآية رقم ١١٣.

(٤) سورة الحجرات. الآية رقم ٣.

(٥) سبق تخريج الحديث فى قوله ﷺ: «التقوى ها هنا».

(٦) سورة المائدة. الآية رقم ٢٧.

(٧) سورة الأحزاب. الآية رقم ٥٣.

(٨) سورة المائدة. الآية رقم ٤١.

(٩) سورة آل عمران. الآية رقم ١٥٤.

(١٠) سورة المؤمنون. الآية رقم ٦٠.

(١١) سورة الأنفال. الآية رقم ٢.

(١٢) سورة الحج. الآية رقم ٥٤.

وقال فى اللين: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [1].

وقال فى عدم الفقه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [2].

وقال فى الخشوع: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [3].

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلى. وهو يعبث بلحيته. فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» [4].

وقال أهل التفسير: إن معنى الخشوع الخوف الدائم فى القلب [5].

اعلم ـ رحمك الله [6] ـ أنه ليس من خلق الله شئ أطيب من قلب طاب بنور التوحيد، والمعرفة، والإيمان. ولا أطهر، ولا أنظف، ولا أتقى، ولا أصفى، ولا أوسع. إذا طهره الله من الأنجاس، وتولى إحياءه بنور الحق، وحفظه، وحرسه، وزاد فيه من الفوائد. وهو قلب المؤمن. وليس لأنواره غاية.

وليس شئ أخبث منه، ولا أنتن، ولا أنجس. إذا خذل الله صاحبه. ولم يتول حفظه، ووكله إلى الشيطان. وهو قلب المنافق، والكافر. لأنه معدن الشرك، والشك، والنفاق، والريب، والمرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [7].

وقال فى المنافقين: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [8].

---

(١) سورة الزمر. الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم ١٧٩.

(٣) سورة الحديد. الآية رقم ١٦.

(٤) ورد فى بعض كتب السنة.

(٥) انظر: غرائب القرآن للنيسابورى. . وفى مفردات القرآن للراغب الأصفهانى: الخشوع الضراعة. وأكثر ما يستعمل الخشوع فما يوجد على الجوارح.
والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد فى القلب. ولذلك قيل فيما روى: «إذا ضرع القلب خشعت الجوارح». .

(٦) دعاء بالرحمة من الحكيم الترمذى لمن يعلم.

(٧) سورة التوبة. الآية رقم ٢٨.

(٨) سورة التوبة. الآية رقم ٩٥.

وقال فى معنى الريب: ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [1].
وقال فى معنى الإنكار: ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ [2].
وقال فى معنى المرض: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [3].
وأصل جميع الذنوب: قساوة القلب.
قال الحكيم: «إن القلب إذا قسى لا يبالى إذا أساء» [4].

والقلب إذا استنار بنور الله، ونور الإيمان. تولى الله حفظه، وملأه محبة، وخشية، وأقفل عليه قفل القدرة، ووضع مفتاح المشيئة فى خزانة غيبه، ولا يطلع عليه أحد إلا فى وقت سكرة الموت. فحينئذ يظهر له ما فى غيبه.

وإن القلب إذا امتلأ من ظلمات الكفر، والشك، والنفاق. قيض الله لصاحبه شيطانا[5]. . فتولى حفظه، وأقفل عليه قفل الخذلان. والله يعلم عاقبته، وما يؤول إليه أمره. لا يظهر ذلك لأحد إلى أن يغرغر. وذلك سر الله، لا يطلع عليه غير.

فكم من كافر بعيد وُفق بالإيمان، فيموت سعيداً، وكم من مؤمن قريب يخذله ربه فيموت شقيا.

---

(١) سورة التوبة. الآية رقم ٤٥.
(٢) سورة النحل. الآية رقم ٢٢.
(٣) سورة البقرة. الآية رقم ١٠.
وسورة المائدة. الآية رقم ٥٢.
وسورة الأنفال. الآية رقم ٤٩.
وسورة التوبة. الآية رقم ١٢٥
وسورة الحج. الآية رقم ٥٣.
وسورة الأحزاب. الآية رقم ١٢، ٦٠.
وسورة محمد. الآية رقم ٢٠، ٢٩.
وسورة المدثر. الآية رقم ٣١.
(٤) إن القلب إذا قسى لا يبالى إذا أساء. لأن هذا القلب فقد معايير الإيمان.
(٥) قال تعالى فى سورة الزخرف. الآية ٣٦ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾.

واعلم ـ رحمك الله ـ[1] قدرة الله نافذة، وأنه لم يطلع على مراده، ومشيئته فى خلقه، وخواتم أعماله. إلا طائفة من الأنبياء. وذلك علامته لصحة نبوتهم.

وأخبر رسول الله ﷺ عن عشرة من أصحابه[2] أنهم من أهل الجنة، كرامة من الله وفضلاً منه عليه.

واعلم.. أن مدار تأكد وجوب الثواب والعقاب بالقلب، وفعله بالنفس تبعة. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[3].

وإنما هذه فى أحكام الآخرة. وأما حكم الدنيا فالنفس تؤاخذ فى أفعالها، وأما فيما بين العبد وبين ربه. فإن الحكم بما فى القلب.

قال الله تعالى فى شأن عمار بن ياسر:﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[4].

فبين الله عذره أنه لم يضره ذلك لطمأنينة قلبه على صدق الإيمان. ويثاب العبد لعمله بالأركان. إذا صحت نية قلبه على ذلك بنور الإيمان.

قال رسول الله ﷺ : «يثاب الناس على قدر نياتهم»[5]. و «إنما الأعمال بالنيات»[6] و «لا عمل لمن لا نية له»[7]. فالصدر موضع يصدر إليه علم العبارة.

---

(١) دعاء : والدعاء مطلوب.

(٢) يقول الإمام الطحاوى: وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق. وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح . وهو أمين هذه الأمة. رضى الله عنهم أجمعين.. «شرح العقيدة الطحاوية جـ٢ ص ٧٢٨».

(٣) سورة البقرة. الآية رقم ٢٢٥.

(٤) سورة النحل. الآية رقم ١٠٦.

(٥) روى نحوه الطبرانى فى الكبير (جـ ٦ ص ٢٢٨) والحديث (رقم ٥٩٤) وجاء الحديث فى الفوائد المجموعة برقم (٣٥٠) ورواه أبو نعيم فى حلية الأولياء (جـ٣ ص ٢٥٥). وانظر: مجمع الزوائد (جـ١ ص ٦١-١٠٩).

(٦) سبق تخريجه..

(٧) هو رواية بالمعنى لحديث : «إنما الأعمال بالنيات».

والقلب معدن العلم الذى تحت علم العبارة. وهو علم الحكمة والإشارة.
وعلم العبارة: حجة الله على الخلق.. يقول الله لهم: ماذا عملتم فيما علمتم؟ .

وعلم الإشارة: محجة العبد إلى الله، بهداية الله تعالى له. إنه منَّ عليه، بكشف قلبه، بمشاهدة غيبه، ورؤية ما وراء حجبه كأنه يرى ذلك كله بعينه.

حتى لو كشف له الغطاء لما زاد فى نفسه.

فالقلب موضع علم الإشارة.

ومعنى علم العبارة: أن يعبر باللسان. ومعنى علم الإشارة: أن يشير بقلبه إلى ربوبيته، ووحدانيته، وعظمته، وجلاله، وقدرته، وجميع صفاته، وحقائق صنعته، وفعله.

ومعدن نور الإيمان، ونور القرآن. معدن واحد. وهو القلب. وكلا النورين شكْلاَن.

قال الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً ﴾[1] .

فجمع بين النورين بالهاء. كناية الواحد.

ومعنى الإشارة: أنه قد أشار إلى ربه بالربوبية[2] لم يكفر به، ولم يشكر غيره، ولا يرجو أحداً سواه.

واعلم.. أن نور القلب على سبيل الكل لا يتجزأ، ولا يتبعض لأنه أصل يجئ كله إذا جاء، ويذهب كله إذا ذهب.

وكذا ظلمة الكفر. لأنها أصل كل مصيبة إلا أن تذهب. وربما يضعف، ويتهمأ، ويتبعض سلطانها. مثل السراج. إذ هو سراج واحد، إن زادت ولاية نوره أو نقصت.

---

(١) سورة الشورى: الآية رقم ٥٢.

(٢) والربوبية: الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شئ ولا رب غيره.

وأما نور الصدر وظلمته. فإنه يزيد وينقص. لأن هذا فرع وهو بالنفس يقام. وعيِّن به الإسلام. ومنه يدخل النقصان فى هذا الوجه من الدين، وربما يزيد فيه.

والدليل على ذلك ما قال رسول الله ﷺ فى شأن النساء فقال: «هن ناقصات العقل والدين»(1).

وإنما المراد منه فرع الدين فى أيام الحيض والنفاس.

فبان لكَ أن أنوار الصدور على وجوه، والعمل بها على المواقيت والمقادير.

فمن أراد علماً منه ازداد فى صدره نوره على مقدار ذلك. وينقص أيضاً نوره بترك استعماله.

لأن حامل هذا النوع من العلم هى النفس. فكما أنها تزيد وتنقص فكذلك أفعالها وصفاتها تزيد وتنقص.

وأما أنوار القلب. فإنها فى الأصل كاملة. ومثلها كمثل الشمس التى هى كاملة. ولكن الهواء إذا كان فيه علة مثل الغيم، والضباب، وشدة الحر، وشدة البرد. حجبت هذه الأشياء نورها. فانتقصت ولاية شعاعها، وقل سلطان حرها.

فإذا ارتفعت تلك العلل نفذت ولاية نورها، وبلغت شعاعها، واشتد سلطانها. ولم تكن فى ذاتها ناقصة، ولكن منافعها قد انقطعت للعلل التى وصفتها.

فكذلك نور الإيمان، ونور المعرفة، ونور التوحيد. إذا أخذتها ظلمات الغفلة، وغيوم النسيان، وحجب العصيان. وامتلأ الصدر من غبار الشهوات، وضباب أضرار النفس، واليأس من روح الله. انتقصت ولاية هذه الأنوار عن النفس، وبقيت بذاتها تحت هذه الحجب ووراء هذه الأستار.

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (جـ1 ص 345). وأخرجه مسلم فى صحيحه (برقم 79) باختلاف يسير.

فإذا ارتفعت هذه العلل من الصدر بمنة الله، وتوفيقه، وصحت توبة العبد إلى الله تعالى. كُشف الغطاء، وخُرقت الحجب، وظهرت منافعها على النفس، وانتشرت ولايتها.

فمن تفكر بتوفيق الله فى هذه النكتة، واستمسك بالسنة. أزال الله تعالى كثيراً من الشبهات من قلبه، وقلع عن صدره عروق ريبه، وهداه الله تعالى إلى مشاهدة حقائق غيبه.

وهذا شئ واضح لمن يَسَّر الله عليهم الفقه، والفهم.

وأما مثل نور الأحكام. وهو نور الإسلام فى الصدر. فإنه يزداد بصحة المعاملة، وصدق المجاهدة. وينقص نوره بالإعراض عن إقامة شرائعه، وترك استعماله. فمثله كمثل القمر. فإنه يزيد وينقص.

الإسلام: اسم جامع لأصل الدين وفروعه. وقد أكمل الله هذا الدين بفروعه، وأحكامه، فى نيف وعشرين سنة. إلا أنه نسخ من أحكامه بعضها، فبدل بعضها[1].

وأما الإيمان، والمعرفة، والتوحيد. فلا يجوز النسخ فيها، ولا تبديل شئ منها. وكفى العاقل الموفق إذا تفكر فيها. أن يعرف الفرق بين ما حملته النفس، وبين ما حمله القلب.

ولكن المؤمن هو منَ الله فى مزيد من البر فى كل لحظة، وساعة فتعلو مراتبه من جهة مشاهدة لطائف الله تعالى. ويكشف له من حجبت الغيب من ساعة إلى ساعة ما لم يكشف له قبل ذلك.

وكذلك العبد تضعف أحواله أحياناً، وتشغل مراتب قلبه من جهة الغفلة. والأصول على حالها.

(١) النسخ هو رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى.

والنسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهى. سواء أكانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى.

على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التى ترجع الى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر أو الأداب الخلقية، أو أصول العبادات والمعاملات.

ومثلها أيضاً كمثل السراج يكون فى شئ فيرخى عليه الستور. فهو على حاله من الداخل. ولكن ضياؤه، ومنفعته حُجبت، وولايته عن الانتشار انقطعت.

ومثلها أيضاً كمثل المرآة تلف فى ثوب. فهى فى الأصل كما كانت إلا أن منفعة الظاهر قد انقطعت.

فافهم ـ رحمك الله ـ أن الكتاب المنزل(1) ـ كما كان جبريل عليه السلام تولى إنزاله، بعلم الله تعالى. فمعدنه قلب النبى عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(2)..

وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾(3)..

---

(1) الكتاب المنزل: القرآن الكريم. قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾.

(2) سورة البقرة. الآية رقم 97.

(3) سورة الشعراء. الآية رقم 93.

الفصل الرابع

[فى الفؤاد]

واعلم . . أن الفؤاد. وإن كان موضع الرؤية. فإنما يرى الفؤاد ويعلم القلب.

وإذا اجتمع العلم والرؤية. صار الغيب عند صاحبه عياناً[١]. ويستيقن العبد بالعلم والمشاهدة، وحقيقة رؤية الإيمان: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾[٢]. .

والمنة لله عليه بالهداية، والتوفيق بتصديقه. ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[٣]. والحجة لله عليه بتكذيبه.

وقال الله تعالى فى علم اليقين، وعين اليقين: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [٤] . .

وأخبر الله نبيه موسى عليه السلام: أن قومه اتخذوا العجل فاشتد غضبه، ورجع إلى قومه غضبان أسفاً [٥]. لما أيقن بإخبار الله تعالى عنهم، وحمل الألواح[٦].

---

(١) المراد بالغيب هنا. ما كان غائبا أو خافيا أو بعيداً ـ على ما يبدو ـ

(٢) سورة الأنعام. الآية رقم ١٠٤.

(٣) سورة الأنعام. الآية رقم ١٠٤.

(٤) سورة التكاثر. الآيات رقم ٥ ـ ٧.

(٥) إشارة إلى الآية ١٥٠ من سورة الأعراف. يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝١٥١ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

(٦) موسى عليه السلام لما أُخْبِرَ ان قومه عبدوا العجل لم يُلق الألواح. فلما رآهم قد عبدوها ألقاها. وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله. لكن المُخْبَرَ وإن جزم بصدق المُخبِرِ. فقد لا يتصور المُخْبَرَ به فى نفسه. كما يتصوره إذا عاينه «شرح العقيدة الطحاوية».

فلما عاينهم يعبدون العجل ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فكذلك قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى ليس الخبر كالمعاينة»[1] إن موسى أخبره ربه قال: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[2]. فلما عاينهم ازداد غضبا وحدة.

فالقلب أيضا تضاف إليه الرؤية. ولكن إنما يرى بالنور الذى فيه. يدل على ذلك. ما أجاب أبو جعفر محمد بن على رضى الله عنه للأعرابى، حين سأله: «رأيت ربك؟»

فقال: «ما كنت أعبد شيئا لم أره».

فقال: «كيف رأيته؟».

قال: «إنه لم تره الأبصار بمشاهدة العيان. ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[3].

فأشار إلى الرؤية بالقلب، ولكن بحقيقة نور الإيمان.

والقلب والفؤاد يعبر عنهما بلفظة البصر لأنها موضعان للبصر.

قال الله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[4].

وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[5].

فأهل الأبصار: لهم الاعتبار. بأن يروا فى الأشياء لطائف صنع الله تعالى. وإنما هم أهل القلوب.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٨٨) والبزار حديث (٢٠٠) والطبرانى حديث (١٢٤٥١) وأخرجه أحمد (جـ١ ص ٢١٥، ٢٧١). والحاكم (جـ٢ ص ٣٢١).

والحديث: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر. أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح. فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

وفى لفظ: «ليس الخبر كالمعاينة. إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل. فلم يلق الألواح. فلما عاين ماصنعوا. ألقى الألواح فانكسرت»..

(٢) سورة طه. الآية رقم ٨٥.

(٣) أى الاعتقاد الجازم.

(٤) سورة: النور. الآية رقم ٤٤.

(٥) سورة الحشر. الآية رقم ٢.

وأهل المشاهدة بنور الإيمان على مراتب:

فمنهم من يكشف له عن عظائم الغفلة بمجاهدته الصحيحة ورؤية الآخرة. بعيان عينى قلبه. كأنه ينظر إليها. كما قال حارثة: «أصبحت مؤمنا حقا». قال رسول الله ﷺ: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»[1]؟ الحديث.

فهذا كشف الله له. يعزف نفسه عن الدنيا. فرأى الأخرة، وعاينها بنور قلبه. وإنه لم ينطق عن مقام مشاهدة الله، ومشاهدة صفاته ومنته، وبره، وعظمته. وما أشبهها، إنما ينطق عن مجاهدته التى أورثته مشاهدة العرش، والجنة وأهلها، والنار وأهلها.

فبان لك: أن الرؤية والمشاهدة، من جهة العبد. يزداد سلطانها، وأنوارها من الله تعالى.

وفرق أخر بين القلب والصدر: أن نور الصدر له نهاية، ونورالقلب لانهاية له، ولاغاية، ولا انقطاع، وإن مات العبد.

وإنما العبد إذا مات على الإيمان. كان نوره معه لايفارقه فى القبر، ولا فى القيامة. ويبقى معه دائما.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[2].

وأما أحكام شرائع الإسلام، وما كان بناؤه على سبيل التكليف. فإنها تنتهى غايتها بالموت.

وكفى به دليلا لمن يقول بكمال الإيمان وأنه لايزيد ولاينقص.

وهو حجة على من يقول بزيادته ونقصانه.. ويشبهه بسائر الأعمال، ويقول: بأن الأعمال كلها إيمان. ويقول: إن الإيمان باللسان. أو يقول: فى الحقيقة: إنه فعل العبد. أو يفرق بين حقيقة معنى الإيمان ومعنى الإسلام.

---

(١) الحديث رواه البزار عن أنس، ورواه الطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك وسنده ضعيف «انظر الحكيم الترمذى كتاب أدب النفس تحقيق الدكتور أحمد السايح ط الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م.

(٢) سورة إبراهيم الآية رقم: ٢٧.

وليس بمصيب منا من يشتغل بما لم يكلف(١).

والسكوت للجاهل سلامة، والنطق للعالم من الله إكرام.

ألا ترى أن سؤال العبد فى القبر. إنما يكون عن الأصول، ولا يكون عن الفروع(٢).

يقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟(٣)

ولا يقال: ما عملك؟ ولا كيف صليت(٤).

ويسأل يوم القيامة عن الإيمان أولا. ثم عن الأعمال على الولاء. فيثاب بالأعمال على قدر قوة الأصول. وهى النيات.

إنما يسمى القلب قلبا لسرعة تقلبه. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما مثل القلب كمثل ريشة فى الفلاة من الأرض»(٥) الحديث.

فأخبر عليه الصلاة والسلام طرفا من قدرة الله، وشيئا من لطفه لعبده الضعيف، بتثبيت قلبه على الإيمان، وإرسائه على الحق بسرعة تقلبه. كيلا يرتفع عن الهدى، بحول الله وقوته.

فالعاقل من لايضيف فعل القلب إلى نفسه إلا على مقدار ما يليق بالعبودية، ويسكت عما لايعنيه.

فإن له وراء ذلك اشتغالا عن الفضول بما لايعنيه. ومن انهدام بناء توحيده، وأساس إيمانه، وأرض معرفته. فَمَنْ غيره يبنيه؟

---

(١) أى ليس بمصيب من يشتغل بقضايا بعيدة عن المنهج الإسلامى. وتدخل الإنسان فى متاهات.

(٢) إن فى هذه الأصول دلائل على وحدة الأمة الإسلامية. ولو أن المصلحين استثمروا هذه الأساليب. لوصلوا بالأمة إلى خير ما يكون لها. ولكن الناس فى هذا الزمان استثمروا الخلاف فى الفروع وجعلوه أساسا للتكفير، وتمزيق الأمة.

(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد فى المسند (٤/٢٨٧ و٢٩٥) وأخرجه أبو داود فى سننه حديث (رقم ٤٧٥٣) والبيهقى فى إثبات عذاب القبر وابن أبى شيبة (جـ٣ ص ٣٨٠، ٣٨٢) وابن منده فى الإيمان. والحاكم فى المستدرك (جـ١ ص٣٧- ٤٠).

(٤) إشارة إلى الفروع.

(٥) لم نجد الحديث فيما اطلعنا عليه من مراجع.

وقد وصفتُ أن الإسلام جمع العلم والعمل. والدليل عليه ما أجاب رسول الله ﷺ حين سأله جبريل: ما الإسلام؟ الحديث[1].

فاتفقا على أن الإسلام علم وعمل.

وأجاب سؤاله عن الإيمان[2]. فاتفقا فى ذلك جميعا: أنه علم ومستقره القلوب.

وما خاصة أهل الإيمان. فإنهم يستفيدون من أحاديث رسول الله ﷺ، فوائد لطيفة. لا تهتدى العامة إليها. لأنهم محجوبون بنفوسهم عن لطائف الحق، برؤيتهم أعمالهم.

وقد أمر الله أن يخاطب الناس على قدر عقولهم. وقال: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[3].

وأما جوابه عن الإحسان[4]. فإنه قيد بمشاهدة الله عز وجل فقط.

فإما أن يشاهد العبد بقلبه ربه جل جلاله.

واما أن يشاهد بقلبه أنه يراه جل جلاله.

وفى هذا الخبر فوائد كثيرة، دون ما عقلته العامة. إلا أن هذا ليس موضع بيانها.

فبين رسول الله ﷺ أن مقامات المؤمنين على قدر مراتبهم.

إذ قيد الإحسان بالرؤية. ومعدن الرؤية هو الفؤاد. قال الله عز وجل: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[5].

---

(١) قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا» والحديث رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان (رقم ٨)واخرجه أبو داود وابن ماجة والنسائى والترمذى، وابن حبان.

(٢) قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

(٣) سورة النساء الآية رقم: ٦٣.

(٤) قال له: ما الاحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(٥) سورة النجم الآية رقم: ١١.

والفؤاد مشتق من الفائدة، لأنه يرى من الله عز وجل فوائد حبه. فيستفيد الفؤاد بالرؤية، ويتلذذ القلب بالعلم.

وإنه مالم ير الفؤاد. لم ينتفع القلب بالعلم.

ألا ترى أن الأعمى لاينفعه علمه شيئا فى وقت الشهادة. إذا احتاج إلى أدائها. لأنه محجوب عن الرؤية.

فعلمه فى الحقيقة علم. لكنه لم يتأكد سلطانه بجرح القاضى شهادته بالعمى، وإن كان عدلا.

وفيه إشارة لمن فقهه الله فى الدين. قال الله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1]. فكيف يشهد من علم شيئا ولم يره.

وقد ذكر الله فى قصة يوسف وإخوته عليهم السلام أنهم قالوا: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[2]. ولم يكونوا رأوا الصواع فى رحل أخيهم. وأنه من وضع صاحب يوسف بأمره، ولم يكن سرقة.

وإن الله جل وعلا أكرمنا بالقرآن، وهو بحره الأعظم. ملأه من جوهر اللطائف، وجعله من خزائن الظرائف.

فطوبى لمن أكرمه الله ببعض ما فيه من الحكمة، والبيان فى السر والإعلان.

وقال بعض العارفين إنمى سمى الفؤاد فؤادًا. لأن فيه ألف واد. فإذا كان فؤادًا لعارف. فأوديته جارية من الأنوار، من إحسان الله تعالى، وبره، ولطفه.

واسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب. ومعناهما قريب كقرب معنى الاسمين الرحمن الرحيم.

---

(١) سورة الحج. الآية رقم: ٧٨.

(٢) سورة يوسف. الآية رقم: ٨١.

فحافظ القلب هو الرحمن. لأن القلب معدن الإيمان. والمؤمن توكل بصحة إيمانه على الرحمن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾(١).

وحافظ الفؤاد هو الرحيم. قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾(٢). وقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(٣).

ووصف الله تبارك وتعالى ربطه قلب العبد. فقال فى قصة أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾(٤). وقال فى قصة أم موسى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾(٥).

وقال أهل التفسير: ربط القلب بنور التوحيد.

وذلك أن القلب يعلم. والعالم يحتاج إلى ربط التأييد. حتى يطمئن بذكر الله عز وجل.

وأما الفؤاد فإنه يرى ويعاين. فيقع له الفراغة، ولايحتاج إلى الربط. بل يحتاج إلى معونة المدد بالهداية. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾(٦).

فوصف الفؤاد بالفراغة وفضله على القلب. إذ كان القلب يحتاج إلى الربط. والفؤاد يرى ويعاين، والقلب يعلم و« ليس الخبر كالمعاينة»(٧).

(١) سورة الملك. الآية رقم: ٢٩.
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم: ١٥٦.
(٣) سورة الفرقان. الآية رقم: ٣٢.
(٤) سورة الكهف. الآية رقم: ١٤.
(٥) سورة القصص. الآية رقم: ١٠.
(٦) سورة القصص. الآية رقم: ١٠.
(٧) سبق تخريج الحديث.

الفصل الخامس

[فى اللب]

واللب هو الجبل الأعظم، والمقام الأسلم. وهو كالقطب لايزول ولا يتحرك وبه قوام الدين.

والأنوار كلها راجعة إليه، حافة حوله. ولا تتم هذه الأنوار، ولاينفذ سلطانها إلا بصلاح اللب وقوامه، ولا تثبت هذه الأنوار إلا بثبوته، ولا توجد إلا بوجوده.

وهو معدن نور التوحيد، ونور مشاهدة التفريد. وبه يصح من العبد حقيقة التجريد، وضياء التمجيد.

وإن هذا اللب نور مقرون، وزرع مغروس، وعقل مطبوع. ليس كالمركبات فى النفس التى هى داخلة. إنما هو نور مبسوط كالأشياء الأصلية.

وهذا اللب الذى هو العقل مغروس فى أرض التوحيد. ترابها نور التفريد، سقى من ماء اللطف من بحر التمجيد. حتى امتلأت عروقه من أنوار اليقين، وتولى الله غرسه، وباشر ذلك بقدرته من غير واسطة. فغرسه فى جنة الرضى.

ثم عصم هذه البحور بسور الصون، وأرساه فى أزليته، وأبديته، وأوليته.

حتى لاتكاد تقترب منه بهيمة النفس بشهواتها أو بجهلها. أو سباع مفاوز الضلالة، أو شىء من الدواب التى هى طبائع النفس مثل كبرها، وحمقها، وآفاتها.

والرب ـ جل جلاله ـ صاحب هذا البستان، ووليه الذى أزين من جميع الجنان لأنه بستان الإيمان تولى الله غرسه، وسقيه، وتربيته. حتى أثمر الشجر

نور الإيمان، بتوفيق الرحمن، ولطائف ثمرات الإحسان. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(١).

فهذا تفسير اسم اللب. فإنه «لام وباء» فابتدأ بلام مثل لام اللطف. والباء مشددة، واحدة فى الكتابة. لكنها من الحروف المضاعفة. فهى فى الحقيقة اثنان. باء البر فى البداية، وباء البقاء بالبركة عليه.

وهذا النور لايوجد لسبب من الأسباب إلا بفضل مفتح الأبواب. فأصل ما رزق الله تعالى العبد. من أصول الدين. هو فضل الله بلا علة. ثم جعل فروعه بعلة العبودية.

ومجاهدة العبد مقرونة بمعونة الربوبية، وهداية الألوهية. ولا توفق مجاهدة العبد إلا بتوفيق من الله تعالى فى الوقت، وحسن النظر قبل الوقت. بلطف التدبير، وحسن التقدير، حتى يكون أول شيء فضله فى الأزل، فيتيسر على العبد أعمال الخير.

وأعلم. أن اللب لايكون إلا لأهل الإيمان. الذين هم من خاصة عباد الرحمن. الذين أقبلوا إلى طاعة المولى، وأعرضوا عن النفس والدنيا فألبسهم لباس التقوى، وصرف عنهم أنواع البلاء.

فسماهم الله أولى الألباب، وخصهم بالخطاب، وعاتبهم بأنواع العتاب، ومدحهم فى كثير من الكتاب.

فقال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾(٢).

وقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾(٣).

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٤).

---

(١) سورة الحجرات. الآية رقم: ٧.

(٢) سورة المائدة. الآية رقم: ١٠٠.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم: ١٩٧.

(٤) سورة الأنعام. الآية رقم: ٩٠.

وقال: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(١).

وقال: ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٢).

وقال: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(٣).

فمدح الله تعالى أولى الألباب، وبين مراتبهم، وسرائرهم مع ربهم، وفضائلهم فى فقههم، وفهمهم، وحلمهم. حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم. لأنه خصهم بنور اللب مالم يفعل ذلك بغيرهم.

وأما عند عامة أهل الأدب، ومن لهم معرفة بشىء من اللغة فإن اللب هو العقل.

ولكن بينهما فرق. كما بين نور الشمس، ونور السراج. فكلاهما نور. وهذا شىء ظاهر.

لأنك لاتكاد ترى عاقلين يستوى سلطان عقلهما ونورهما. بل يتفاضل أحدهما على الاخر، بزيادة خصٍّ هذا العقل بها. ما لم يبن ذلك فى الأخر.

فما ظنك بمن خصه الله تعالى بمعرفته، وأكرمه بلطائف بره، وأفاض عليه من بحار خيره. مالم يفض منها على غيره.

والعقل فى الاسم واحد. وسلطانه ناقص وزائد. وهو متبوع متفرع. يقوى بقوة أركانه ويزداد بزيادة سلطانه.

وأول مقام العقل. هو عقل الفطرة. وهو الذى يخرج به الصبى والرجل من صفة الجنون. فيعقل ما يقال له. لأنه يُنهض ويؤمر. ويميز بعقله بين الخير والشر، ويعرف به الكرامة من الهوان، والربح من الخسران، والأباعد من الجيران، والقرابة من الأجانب. ومنه عقل الحجة. وهو الذى به يستحق العبد من الله تعالى الخطاب. فإذا بلغ الحلم يتأكد نور العقل الذى وُصف بنور التأييد، فيؤيد عقله. فيصل لخطاب الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم: ٢٦٩.

(٢) سورة إبراهيم. الآية رقم: ٥٢.

(٣) سورة ص. الآية رقم: ٢٩.

ومن عقل التجربة، وهو أنفع الثلاثة وأفضلها. لأنه يصير حكيما بالتجارب. يعرف ما لم يكن بدليل ما قد كان. وهو ما قال رسول الله ﷺ: «لا حكيم إلا ذو تجربة ولا حليم إلا ذو عثرة»[1].

ومنه عقل موروث. وصفته أن يكون الرجل كبيرًا، عاقلاً. حكيما، عليمًا، حليما، وقورًا. قد ابتلى بولد سفيه، أو تلميذ سفيه، لاينتفع من صحبته. فيموت هذا العاقل. فيورث الله تبارك وتعالى ببركته، عقلَه، ونورَه، وضياءه، ونفعه، ووقاره، وسكينته، وسمته. لهذا السفيه. فيتغير حاله فى الوقت. فيصير وقورًا عاقلاً على سبيل سلفه.

وهذا إنما يعاينه الإنسان بوفاة الكبير العاقل، وتغير الحال فى السفيه الجاهل. وليس يورث غير عقله. ولكن تدركه بركة دعائه، ونور علمه. ويتفضل الله تبارك وتعالى باتمام ذلك بمنه وكرمه.

وهذه الوجوه منافعها على المتدار، ويصلح الإنسان بهذه الوجوه من العقل لصحبة الناس، وينتفعون به.

ولعل هذه الوجوه تُجمع فيمن لا يؤمن بالله واليوم الأخر. مثل: الفلاسفة، وحكماء الهند، والروم، وغيرهم[2].

لأن هذه الأنواع من العقل إنما هى لتأييد النفوس، ومعاملة أهل الدنيا على سبيل المراءاة.

وأما النافع منها تمام النفع. فهو العقل الموزون المطبوع بنور هداية الله تعالى. وهو اللب الذى وصفته حديثا. . ويسمى عقلاً.

والعقل يعبر به عن العلم على وجه المجاز فى سعة اللغة. ولكن أولوا الألباب هم العلماء بالله.

---

(١) رواه البخارى تعليقا عن معاوية: «لا حكيم إلا ذو تجربة» (جـ٣ ص١٤٦)، وفى الأدب المفرد (جـ٢ ص٢٧). وأخرجه الترمذى (جـ٦ ص١٨٢). والحاكم فى المستدرك (جـ٤ ص٢٩٢).

(٢) من الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الأخر.

وليس كل عاقل عالما بالله. وأما كل عالم بالله فهو عاقل. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[1].

والعقل له أسماء أخر. يسمى: حلما، ونُهى، وحِجْرا، وحِجى.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴾[2].

وقال: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم»[4].

وقد قيل: إن العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى. كما يمنع العقال الدابة من مرتعها ومرعاها.

والعقل اسم غير متبدل. وهو اسم عام، ولايستعمل تعريف هذه الأسماء إلا منه. يقال: عقل يعقل عقلاً، فهو عاقل، وذلك معقول عنه.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5]. وهو أن يعقل عن الله أمره، ونهيه، ومواعظه، ووعده، ووعيده. ويفهم مراده فى الأشياء على قدر ما يوفقه، ويكشف له من تعظيم أمره، واجتناب مناهيه.

وهذه كلها لا توجد إلا بلطف الله، وحسن نظره إليه. فيفضله على غيره باللب الموصوف، والنور المعروف. وهو فقيه فى أصول الدين وفروعه.

وليس كل من يكون فقيها فى الفروع فقيها فى الأصول. لأن الفقه فى علم الأحكام كثير. وهوفقيه بالتفقه. وهو حامل الفقه والعلم. والفقه اسم للعلم. يعبر بهذه اللفظة عنه. يقال: فلان يتفقه ويتعلم.

---

(١) سورة العنكبوت. الآية رقم: ٤٣.

(٢) سورة طه. الآية رقم: ٥٤، ١٢٨.

(٣) سورة الفجر. الآية رقم: ٥.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (برقم ٤٣٢)، وذكره النووى فى رياض الصالحين (ص ٤٤٥).

(٥) سورة النحل. الآية رقم: ٦٧.

وأما الفقه في الحقيقة فهو فقه القلب. كما قال رسول الله ﷺ: «رب حامل فقه لافقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١).

وقال الحكيم: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة، والرضا مصيبة».

وقال الحسن: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بذنبه، المواظب على طاعة ربه».

وقد بينت في صدر الكتاب: أن فقه المتعلم موضعه في باطن الصدر، ويزداد نوره بالتعلم والاستعمال، ويتفرع له أنوار الفقه والفهم، ويستنبط بنور فقهه مسائل، ويقيس مالم يعلم بما يشبهها، ويقرب من معناها.

وأما الفقه في الدين. فهو النور الذي يقذف الله تعالى به في قلب عبده المؤمن. مثل: السراج. يبصر به ولايكون ذلك للكافر والمنافق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

وأما الفقيه الذي نور الله قلبه بنور البصر. فالذي أشار إليه رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبدا خيراً فقهه في الدين وبصره عيوب نفسه، وبصره بداء الدنيا ودوائها»(٣).

فمن جمع الله تعالى فيه كلا الفقهين. فهو الكبريت الأحمر، والعالم الأكبر، واللبيب الأوفر.

فأما استنباط الفقيه في الأحكام. فهو استنباط المسائل على موافقة السنة، وإقامة الشريعة.

وأما استنباط الفقيه في باطن العلم. فهو استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة، ومشاهدة الربوبية.

---

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب (جـ١ ص٣٢)، ورواه أحمد في المسند. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (جـ١ ص ١٣٩) رجاله موثقون.

(٢) سورة المنافقون. الآية رقم: ٧.

(٣) اخرج أوله البخاري ومسلم وابن ماجه وأبو يعلى وزاد فيه «ومن لم يفقه لم يبال به».
وأورده الحافظ المنذري «انظر المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب (جـ١ ص٢٥).

وإنما تتبين زيادة الفضل بينهما فى استنباط معنى فى الباطن والظاهر لأية قد أنزلها الله تعالى. يوجب ظاهرها حكمًا، ويكون تحت ظاهرها من العبارة التى فى باطنها إشارة، وعلم.

فيستنبط الفقيه ما يوافق حجة الله تعالى، ويستنبط الحكيم ما يوافق مراد الله تعالى، ويهدى إلى محجته. بما تبين من لطائف الإشارات، موافقا للتوحيد، ومخبراً عن مراد يوافق الحميد.

الفصل السادس

[فى أنوار القلب]

والأنوار التى وصفتها فى صدر الكتاب. مثل نور الإسلام، ونور الإيمان، ونور المعرفة، ونور التوحيد. وإن كانت أسماؤها مختلفة. فهى أشكال غير أضداد.

ويتولد من كل نور منها فوائد على حدة ما لا يتولد من الأخر على قدر مراتبها.

فنور الإسلام يتولد منه خوف ورجاء.

ونور التوحيد يتولد منه خوف ورجاء.

ونور الإيمان يتولد منه خوف ورجاء.

ونور المعرفة يتولد منه خوف ورجاء.

وكذلك سائر الأحوال التى تهيج من القلب، وتتولد من أنوار الباطن. مثل: الشكر، والصبر، والمحبة، والحياء، والصدق، والوفاء، وغيرها.

ولكن أشرحُ بتوفيق الله تعالى. هذا الفصل الواحد.

فأعلم. أنه يتولد من نور الإسلام خوف الخاتمة، ورجاء حسن العاقبة.

قال الله تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

وقال فى قصة يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٢).

ويتولد من نور الإيمان خوف طوارق السوء. وكذلك يتولد منه رجاء طوارق الخير فى كل وقت.

ونور المعرفة يتولد منه خوف السابقة، ورجاء السابقة.

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم: ١٣٢.

(٢) سورة يوسف. الآية رقم: ١٠١.

ونور التوحيد يتولد منه خوف الحقائق، ورجاء الحقائق.

وهذا النوع يرجع خوفه إلى مشاهدة الربوبية. وهو أن يخاف الله تعالى، ولايخاف سواه، ويرجوه ولا يرجو سواه.

وسائر الأحوال التى ذكرتُ شرحها على هذا السبيل الذى وصفت لك.

ومثل هذه الأنوار كمثل الجبال.

فالإسلام جبل وأرضه الصدر.

والإيمان جبل وموضعه القلب.

والمعرفة جبل ومعدنها الفؤاد.

والتوحيد جبل ومستقره اللب.

وعلى رأس كل جبل طائر.

فطائر جبل الصدر: النفس الأمارة بالسوء.

وطائر جبل القلب: النفس الملهمة.

وطائر جبل الفؤاد: النفس اللوامة.

وطائر جبل اللب: النفس المطمئنة.

فالنفس الأمارة يكون طيرانها فى أودية الشرك، والشك، والنفاق، وما يشبهها. ولكن رحم ربى أولياءه فحفظهم عن شرها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[1].

والنفس الملهمة. يكون طيرانها فى أودية التقوى أحيانا. وفى أودية الفجور أحيانا. قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2].

وطائر جبل المعرفة. هى النفس اللوامة. ويكون طيرانها فى أودية الترفع، والعز، والنظر فى كرامات الله، والافتخار، والفرح بنعم الله أحيانا وفى أودية الافتقار، والتواضع، والازدراء بنفسها، ورؤية الذل، والمسكنة، والفاقة أحيانا.

---

(١) سورة يوسف. الآية رقم: ٥٣.

(٢) سورة الشمس. الآية رقم: ٨.

ومع ذلك تكون لوامة لصاحبها فى أحوالها. قال الله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1].

وطائر جبل اللب: النفس المطمئنة ويكون طيرانها فى أودية الرضا، والحياء، والقرار على التوحيد، ووجود حلاوة ذكر الله تعالى. وهى شكل الروح. طيبها الله عن خبث المنارعة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ...﴾[2]. وقال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[3].

ولفظة اسم النفس. تشمل هذه المعانى ـ كما ذكرنا ـ فى معنى اسم القلب. وهو مثل قول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[4]. والمعنى: أهل القرية. وقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾[5]. يريد بذلك أهل القرية.

فكذلك القلب مضغة لحم، والمراد ما فيها. وكذلك النفس، والمراد ما فى داخل الجسد من النار والنور.

والنفس اسم الجنس. وجوهر بعضها أطيب من بعض. وبعضها أخبث من بعض، وأشد ظلمًا، وأكثر فجورًا. وهى النفس الأمارة.

والنفس طابت بنور ظاهر الإسلام، من خبث ظاهر النفس، وهى تزداد طيبا بصدق المجاهدة. إذا قاربها بتوفيق الله تعالى. قال رسول الله ﷺ فى دعائه: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا»[6].

فتعوذ رسول الله ﷺ مع ماخصه الله تعالى بأنواع من الكرامات، وطهارة فى النفس، والنية. قال: «كان لى شيطان إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم»[7].

---

(١) سورة القيامة. الآية رقم: ٢.

(٢) سورة الفجر. الآية رقم: ٢٧، ٢٨. والآية: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

(٣) سورة الواقعة. الآية رقم: ٨٩.

(٤) سورة يوسف. الآية رقم: ٨٢.

(٥) سورة يونس. الآية رقم: ٩٨.

(٦) هذا جزء من مقدمة خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع. انظر: السيرة النبوية لابن كثير (جـ٤ ص ٤١٥، ٤١٦) وانظر: زاد المعاد لابن القيم (جـ١ ص٢٤٩).

(٧) بعد البحث والمراجعة لم نقف عليه.

والنفس جوهرها ريح حارة مثل الدخان. ظلمانية، سيئة المعاملة، وروحها فى الأصل نورانية، وتزداد صلاحًا بتوفيق الله تعالى مع حسن المعاملة، وصحة التضرع. ولاتزداد صلاحًا إلا بمخالفة العبد هواها، والإعراض عنها وقهرها بالجوع والشدائد.

والنفس اللوامة هى أقرب إلى الحق. لكنها مخادعة، مداهنة. لايعرفها إلا العارفون من الأكياس.

والنفس المطمئنة هى التى طهرها الله من خبث الظلمات. فصارت نورانية فاشكلت الروح. تمشى فى طاعة الله، منقادة من غير إباء منها. فصارت مطيعة بطاعة الله. وهى نفس الصديق الذى ملأ الله سره وعلانيته. إنما شبهتُ هذه الأنوار بالجبال، لأن نور الإسلام فى صدر المسلم أكد، وأحكم من أن يزيله أحد. ما دام الله تعالى يحفظه. حتى لا يتهيأ لأحد أن يزيل نور الإسلام من صدره(١).

وربما لم يستقم المسلم على الطاعة. وهو مع ذلك متمسك بالعروة الوثقى. ولكنه لاينجو من وسوسة النفس.

وجبل نور الإيمان أرسى، وأعظم، وأرسخ، وأثبت من نور الإسلام. لأن للنفس ولاية وتكلفا فى حفظ الإسلام، واستعمال شرائعه. وليس لها تكلف فى حفظ القلب.

ومثبته نور الرب جل جلاله. قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ فى مدح هذه الأمة: «الإيمان فى قلوبهم كالجبال الرواسى»(٣). وهو موضع علم النفع.

(١) ولذلك شبه نور الإسلام بالجبل.

(٢) سورة إبراهيم. الآية رقم: ٢٧.

(٣) بعد البحث والمراجعة لم نقف عليه.

ونور المعرفة أوسع، وضياؤها أرفع. لأنه معدن الرؤية. والرؤية أكد من الخبر لأن. «الخبر ليس كالمعاينة»[1].

ونور التوحيد هو أعظم الجبال. ومثله فى الجبال كمثل جبل قاف[2] عند سائر الجبال.

فجبل نور الإسلام تنتهى حدوده إلى مجاهدة النفس، وصالح أعمالها.

وأهل الإسلام هم فى درجات متفاضلون.

وجبل نور الإيمان تنتهى حدوده إلى التوكل، والتفويض.

والمشاهدة أجل مالم ير النفس والاعتبار بما قد رأى، والنظر بنوره إلى ما غاب عن الأعين.

وأهل الإيمان فى أصل الإيمان متساوون.

وفى مشاهداتهم، وما يتولد فى أنواره من ثمرات الإيمان وفروعه متفاضلون.

وجبل نور المعرفة تنتهى حدوده إلى إحاطة العلم بالبقاء، والفناء، والعجز، والقدرة. وتنتهى إلى مشاهدة بر الله تعالى، ولطائفه.

فبهذا النور يعرف الفانى، والزائل. وحقارته، ودناءته.

ويعرف الباقى. وقدرته، ورفعته.

ويعرف عجز الخلائق وضعفهم.

والعارف فى هذا المثل. كأنه جبل الله. استقرت معرفته، برؤية عظمته، وكبريائه، وقدرته.

ويمسكه ربه فلا يزول بإصابة حادثة، ولاينتقل بإصابة محنة. لأن الله تعالى يمسكه بقدرته، وبرحمته.

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) إشارة إلى جبل بعيد.

ومعنى العين من «عرف» كأنه علم وعرف عزة الله، وعظمته، وعلوه، وعلمه. فذلت نفسه عند رؤية عزته، وتصاغرت عند رؤية عظمته، وتلاشت عند رؤية علوه.

ومعنى الراء من «عرف»: رأى ربوبية الله تعالى، ورأفته، ورحمته، ورزقه. فوثق به، وآمن به، واعتمد على رأفته، ورجا من رحمته، ورضى بالله ربا ومدبرا.

ومعنى الفاء: فقه فى الدين لله تعالى، وفهم مراده، وفارق كل فان، وفر من كل فتنة إلى الفتاح العليم، وفاق نور قلبه الباقى على كل شىء فان.

ووجه آخر: معنى العين: عرى قلبه عن النظر إلى غير ربه فألبسه تعالى لباس التقوى. حتى عاود القلب ملازمة باب مولاه.

ومعنى الراء: رأى قلبه كل شىء كما خلقه الله تعالى.

ومعنى الفاء: فرأى الفانى كأنه قد فنى. حتى انفرد للفرد الذى هو مولاه.

ووجه آخر: معنى العين: أنه عزت نفسه بالإيمان، والراء: راحت روحه بارتياح ذكر الرحمن. والفاء: فتح الله تعالى قلبه بالفقه فى علوم القرآن.

ووجه آخر: عشقت نفسه، ورق قلبه، وفاقت روحه.

ووجه آخر: عبد أعانه ربه، فرأى بعونه، ما غاب عن عينيه، وكشف له عن معانى الأشياء. ففارق النفس والخلق بقلبه، فقام بربه لابقوة نفسه. مكشوف به سره، مشغول بربه. قد آثره على ما دونه. فإنه عرف أنه أكبر، وأجل، وأعظم، وأعز، وأكرم، وأعلى، وأعلم، وأغنى، وألطف.

فغرق نور فؤاده فى مشاهدة عظمته. وهو فى بحر فوائد الله تعالى لاينتهى مددها، ولايبلغ غوره أحد.

فهذا أقل علامة من علامات العارف. لأن العارف لايدركه فى أحواله ريح عاصف، ولايتصل به برق خاطف، ولايخبر عنه وصف واصف. ويطوف حول سره من الله تعالى فى كل وقت من بر الله تعالى، ولطائفه، ورحمته، وكرامته، وعظمته، وفوائده، ونعمه. . لاينقطع عنه أدنى طرفة عين من الله أنواع اللطائف.

فهو عارف لله، وعند الله نفسه وغير عارف بما ينكر من نفسه من أخلاقها السيئة، ومن عيوبها. وله من أقواله، وأفعاله حكمة. وهذا كله إنما يتبين له من بحر فضله.

ويثبته على هذه المرتبة العظيمة جبل نور التوحيد الذى هو الجبل الرابع. وهو على مستقر اللب. وهو الجبل الذى لاغاية لعلوه، ولا نهاية لعظمته. وهو معدن جميع الخيرات، والبحر الذى يخرج منه كل خير، ويرجع إليه كل خير، ولا يتهيأ لأحد من الخلق وصف نوره بلسان العبارة إلا على مقدار ما يوفق وييسر.

واعلم - ايدك الله - أن هذا عبد أخذ نور التوحيد فأحاط به حتى أغرقه فى بحره. فصار نور التوحيد على وجه المثل كالشمس - فهى أطول فى الصيف وأشد حرا - طلعت عليه حتى بلغت موضعها من الزوال وهو أعلى موضع فى أيام الصيف ترتفع الشمس إليه.

وليس فى السماء غيم، ولا علة حاجزة لنورها، ولاسبب مانع لحرها. وضيائها من ظلمة.

وليس بينها وبين هذا العبد شىء. حتى أحاطت برأسه فأحرقته الشمس بحرها، وغيرت حاله مألوفا وطبعا.

ولا يرى لشخصه ظلا من ارتفاعها، وعلو مكانها إلا عند قدميه، ولاتستقر قدماه على الأرض من شدة الحر إلا على الضرورة. فكيف يكون هذا الموحد الذى أقامه الله تعالى مقام التوحيد بحوله وقوته.

وهو مقام من يحسّ به أسد فيقتله، ويأكله. وقد استيقن بهلاكه. ليس له معتمد، ولا كاف، ولامستغاث.

فما أقرب حال صاحب هذا المثل من حال الموحد. فهذا إنسان حيّ عند الناس وهو عند نفسه ميت بقربه من ربه. لأنه بقى فى ظلمات حد الإدراك لايدرك كيفية التوحيد.

. . . . . . نور التوحيد وأحاطت به سرا وعلانية.

وقد ضل هذا العبد طريق التكيف. فليس له تكلف فى الأمور. وقد قام بترك الاختيار. وصارت عبوديته أسيرة فى قبضة عزة الرب جل جلاله. وهو يخاف من الشرك الخفى فى سره فى لحظة.

وهو ينظر بقلبه من ربه إلى خلقه كيلا يلتفت إلى غيره من خلقه أو إلى نفسه أو إلى حركته أو إلى حد التعطيل.

حتى يرى عجزه عن إدراك ربوبيته، أو إلى حد التشبيه حتى يرى نفسه غريقا فى بحر التوحيد. وهو بحر عظيم عميق لايرُى شطُّه ولا منتهى لغوره.

وهو ريان عطشان، جوعان شبعان، عريان مكتس، بصير أعمى، عالم جاهل، عاقل أحمق، وحليم أخرق، وغنى فقير، وقادر عاجز، وصحيح مريض، وحى ميت، وباق فان، وبعيد متدا، وقوى متوان، ومشته بلا أمان.

فهذه صفة العالم الربانى، والعارف الروحانى، والسابق النورانى. ليس كالجاهل الظلمانى، ولا علمه نفسانى.

ولو زدتُ فوق هذا الشرح فى حال الموحد أخاف أن يكون فتنة علىَ مَن عافاه الله من هذا البلاء، وغرق فى ظلمات المعاصى، والشهوات، وحب الدنيا عن مشاهدة لطائف المولى.

فإن هذه الأشياء معافاة عن الشرك، والشك، وحبط دون المولى. وهو فى أشد البلاء. كما وصفتُ لك شيئا منه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس فى الدنيا بلاءً الأنبياء. ثم الأمثل فالأمثل»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا ولحثيتم التراب على رؤوسكم»(٢).

وأخبر عليه السلام: «من يشاهد الله تعالى وكبرياءه فى أشد البلاء»(٣).

وقال عليه السلام: «إذ رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية»(٤).

فتفكر ـ رحمك الله ـ فى حال من وقع عليه هذا البلاء، ونزع عنه لباس العافية. فكيف يكون عيشه..

أما بلغت ما كان رسول الله ﷺ فيه فى كل حال وفى كل وقت؟ إذا شرع فى صلاته: سمع له أريز كأريز المرجل(٥). وكان يتغير لون وجهه إذا هاجت ريح، وظهرت حادثة(٦).

ولكن الغفلة فينا حجبتنا عن مشاهدة ما شاهد أهل المعرفة، وملأت خواطر قلوبنا عن مثل هذه الحالات.

وقد ذم الله تعالى أقواما فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٧).

وهذا العبد الذى غرق فى نور التوحيد، واشتد بلاؤه. فهو فى عيش رغد. طابت حياته مع ربه. قال الله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(٨).

---

(١) رواه الترمذى فى الزهد ورقم الحديث (٢٤٠٠) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه ابن ماجه فى الفقه (برقم ٤٠٢٣) ورواه ابن حبان.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (جـ٦ ص١٣٠). وابن الجوزى فى زاد المسير (جـ٨ ص٨٢).

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرج نحوه الترمذى حديث (رقم ٣٤٢٧، وحديث رقم ٢٤٢٨) وأورده الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب: انظر: المنتقى من الترغيب (جـ٢ ص١٠٤٥).

(٥) انظر الفيروزابادى سفر السعادة. تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور عمر يوسف حمدة ط مركز الكتاب للنشر بالقاهرة.

(٦) لم نعثر عليه فيما لدينا من مصادر.

(٧) سورة الروم. الآية رقم: ٧.

(٨) سورة النحل. الآية رقم: ٩٧.

فهذا العبد قد نسى الحلاوات كلها عند حلاوة ذكره، وطاعته، ومعرفته، ومحبته.

وقد قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان مَنْ رضى بالله ربا» إلى آخره[1].

وقال عليه السلام: «ثلاث مَنْ كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ورجل كره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار. ورجل أحب عبداً لم يحبه إلا لله»[2].

وليس هذا موضع شرحها. فهذا عبد سقاه الله من بحر الهدى شرابا، ووجد حلاوته. فهو كالمجنون عند الناس. وقد زينه الله تعالى بأحسن اللباس، وعصمه من شر الوسواس، وفضله على كثير من الناس.

ولا تدرك أحوال هذا الموحد بالنظر والقياس، وخصه الله تعالى بقوة من عنده فى جمع أحواله، بما لايدرك ذلك بالعقول والحواس.

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[3].

وقال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾[4].

وقال: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[5].

فما ظنك ـ رحمك الله ـ بمن كان الله وليه، وناصره، ومعينه، ومؤيده.. هل تدرك حقيقة أحواله بحاسة العقل؟

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه (جـ٢ ص٢) فى كتاب الإيمان. والحديث «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا».

(٢) حديث صحيح.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم: ٢٥٧.

(٤) سورة محمد الآية رقم: ١١.

(٥) سورة الأعراف الآية رقم: ١٩٦.

أما رأيت إنكار الضالين كرامات الأولياء[1]، ومعراج النبى ﷺ[2]. إذ نظروا إليها من أهوائهم وسموها عقولا.

وزعموا أن عقولهم لاتقبل هذه الأشياء. ولايصح مثل هذا من طريق المعقول. فكل مالا تقبل عقولهم فذلك باطل.

فيأخى: كيف تدركُ بآلة، مخلوقة، محدثة، مركبة: ربوبية خالق، قدير، رب، عالم. يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟

ومتى يدركُ شىء، يزيد وينقص، ويتقارب، ويتفاضل: ربوبية رب، لايزيد، ولاينقص، ولايتغير حاله؟

بل العقل حجة من الله تعالى على العبد. وهو آلة، مركبة. لإقامة العبودية. لا لإدراك الربوبية.

ومن عجز عن إدراك أشياء فى نفسه، مخلوقة فيه، ولم يدرك حقيقتها علما إلا بالظن، والخيال. مثل: النوم، وأحوال القلب، وطبائع النفس، والروح ولايعرف حقيقة النفس أى شىء هى. ولا يعرف حقيقة العقل الذى يدعى أنه يعرف به كل شىء. فكيف يكون له سبيل الإدراك إلى ما هو أعلى منه؟

بل الصواب التسليم للحكم، والاستسلام للرب، والرجوع إلى الحق. وهذا الموحد الذى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3].

فهذا صاحب القلب فى الحقيقة. لأن حافظ قلبه ربه عز وجل ولأن من وكَّله الله إلى حفظ قلبه زاغ قلبه. ومن حفظ قلبه ربه فقد وقع من الشغل فى فراغة.

---

(١) أهل السنة أثبتوا الكرامات للأولياء.

(٢) معراج النبى ﷺ: عز وجه إلى السموات العلا. وهناك رأى من أيات ربه الكبرى. رأى جبريل على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها، وصعد به إلى سدرة المنتهى، وجاوز السبع الطباق وكلمه الرحمن وقربه».

(٣) سورة ق. الآية رقم ٣٧.

والناس يعظمون هذا الإنسان لأنه رفيع المقدار: وقد وضع هوى نفسه، وأوزارها، وصارت نفسه لنور قلبه كالمرآة لعينه.

ينظر بنور قلبه إلى نفسه فيعرفها، فيصل بمعرفتها إلى معرفة ربه جل وعلا. قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

وقال عليه السلام: «من عرف نفسه عرف ربه»[٢].

وهذا إنما يكون للمبتدى فى أوائل أمره، وسلوك طريقه. وأما إذا اتصل بنور الحق، وقوى بقوة الحق. تلاشى عند سلطان عظمته قدر من دونه من خلقه، وبطل عند ظهور حقه مقدار جميع خلقه.

وقد وصف الله مثلا من نور قلب المؤمن على سبيل المثال. فقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

فمن تفكر بتوفيق الله بإدراك شىء من معنى بيان هذه الآية. فإن من أول الكتاب إلى آخره. ما يدله على شرح معنى هذه الآية.. والله أعلم.

وقال بعد هذا: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[٤].

وأسماء مقامات السر مثل الصدر، والقلب. هى عبارة باللسان. وإنما حقيقتها إشارات إلى الأنوار. وقد وضعها الله من خزائن نوره.

ألا ترى ما قال رسول الله ﷺ: «فراسة المؤمن لاتخطئ».

«والمؤمن ينظر بنور الله تعالى»[٥].

---

(١) سورة الذاريات. الآية رقم ٢١.

(٢) قال النووى ليس بثابت. وقال ابن تيمية إنه موضوع. وقال أبو المبصر السمعانى فى القواطع: إنه لايعرف مرفوعا وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى. وهو فى كتب الصوفية يسوقونه مساق الحديث.(انظر الشيخ إسماعيل بن محمد العجلونى: كشف الخفا جـ١ ص ٣٦١ ط حلب سوريا).

(٣) سورة النور. الآية رقم: ٣٥. والآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(٤) سورة النور. الآية رقم: ٤٠.

(٥) أخرجه الترمذى (٨/ ٥٥٥) وقال: هذا حديث غريب، والبخارى فى التاريخ، وابن جرير (١٤/ ٣١).

وقال: «ليفتك قلبك»(١).

وقال: «زاجر الله فى قلب كل مؤمن. وواعظه فى قلب كل مؤمن»(٢).

وأعلم يا أخى.. أن قوام الخلق كلهم بالله تعالى: فما ظنك فيمن تولاه الله تعالى خصوصا، واكتنفه بكنفه، وجعله من خاصته وأهل ولايته.

ومن لم يمت لايرى القيامة إلا أن يموت. كما قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»(٣).

ومن مات وخرجت روح نفسه، وانتقل بروحه من الدنيا إلى الآخرة عاين الأخرة وما فيها.

فكذلك من مات بمعناه، وحى بمولاه. علم أنه لايملك لنفسه ضرا، ولا نفعا، ولاموتا، ولانشورا.

فقد كشف له غطاء غفلته، وقامت قيامته. وصار حيا بمولاه. لأنه اكتنفه، وتولاه، وأيد قلبه، وأحياه. فشاهد بنور الحق، مالم يشاهد غيرُه. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾(٤).

وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾(٥).

ومن قتله الكافر فى سبيل الله، جعله الله حيا بكرامته شهيدا. فما ظنك فيمن قتله نور المحبة ونار خوف الهجران، ونار مخالفة الهوى، ونور موافقة الحق، ونار الاشتياق، وقتل نفسه بسيف التوحيد. فصار حيًا لله عز وجل.

والحياة التى يفهمها العامة على وجوه:

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد فى مسنده، والدارمى فى مسنده عن النواس بن سمعان. انظر: شرح الجردنى على الأربعين النووية (ص ١٨٨ - ١٨٩).

(٢) انظر: شرح الجرداني على الأربعين النووية (ص ١٩٢ - ١٥٣).

(٣) لم نقف عليه.

(٤) سورة آل عمران. الآية رقم: ١٦٩.

(٥) سورة البقرة. الآية رقم: ١٥٤.

منها حياة النفس بالروح. وهى حياة الدواب، والبهائم.

ومنها حياة القلب من ظلمة الكفر بنور الإيمان.

ومنها حياة النفس بالعلم. فإن العالم حىّ، والجاهل ميت.

ومنها حياة العبد بنور الطاعة من ظلمة المعصية.

ومنها حياة التائب بنور التوبة من ظلمة الاضرار، وبنور توفيق الله من ظلمة رؤية المجاهدة.

ومنها حياة العبد برؤية منة الله تعالى عليه، وحسن نظره إليه، من ظلمة النظر إلى العمل.

ثم منها مالا تحتمل ذكرها قلوب العامة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾(١).

وقال: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾(٢).

وقال: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾(٣).

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(٤).

فكل حى ممن خلق الله تعالى إنما سمى حيا بالروح. والروح عبارة عن النور الذى به أحيا الله الخلق. وهو كما ذكر الله تعالى. أن الروح من أمره، وقوام الروح بالله، والنفس قائمة بالروح.

فمن فَهَّمَه الله تعالى هذا المقدار، فهم ما وراء ذلك. بتأييد الله وتوحيد الله، وتوفيقه. من حياة القلب بروح الحكمة، وروح الصدق، وروح المحبة، وروح الولاية، وروح الشهادة، وروح الرسالة وروح الكلام، وروح الخلة.

---

(١) سورة الإسراء. الآية رقم: ٨٥.

والآية الكريمة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(٢) سورة المجادلة. الآية رقم: ٢٢.

(٣) سورة غافر. الآية رقم: ١٥.

(٤) سورة الشورى. الآية رقم: ٥٢.

فحياة الصدر بروح الإسلام.

وحياة القلب بروح الإيمان.

وحياة الفؤاد بروح المعرفة والمشاهدة.

وحياة اللب بروح التوحيد، والانفصال عن القوة والحول، والاتصال بالحق. ومثل صاحب هذا الطريق فى ابتداء أمره. كمثل رجل احتوته ظلمات الليل، وأحاطت به فى بيت مظلم.

فأُعطى سراجًا. فاستضاء بنور ذلك السراج.

ثم فتحت كوة بيته وبابه فوقع نور القمر. فاستأنس به واستبشر حتى خرج إلى الصحراء. فاستغنى بنور القمر وضيائه عن ضوء السراج.

فبينما هوفرح كذلك إذ أسفر الصبح. فغلب نورالنهار وسلطانه نور القمر. فاستبشر. فإذا هو قد طلعت الشمس، وجعل نورها وضياؤها يزداد إلى أن يبلغ أعلى درجاتها.

فمثل البيت المظلم هو النفس الجاهلة بظلماتها، ونور السراج فيها نور العقل. ثم يزيد هذا العقل كطلوع القمر بأنوار الشريعة وعلم السنة. ثم يزيد بنور صفوة المعرفة، وهى كطلوع الصبح.

ثم يزيد برؤيته منن الله تعالى. وما سبق له من الله من الحسنى، فى الوقت ظاهرًا وباطنا، ولطائف صنعه وحكمه.

ثم يزيد بنور التوحيد، وهى طلوع الشمس. ثم يرتفع ويزداد ضوؤها ونورها، وسلطانها، ومنافعها برؤية حقائق أثار قدرته، ولطائف ربوبيته.

وإذا اكتملت أنوره، واجتمعت. خاف العبد من زوالها، وخشى من انتقالها، ولم يأمن تغيير حالها.

فصاحب هذا المقام يخاف من فراق هذا النور، وزوال هذا السرور أشد مما يخاف هذا المستأنس بنور الشمس من زوالها وغروبها وقد قال القائل:

طلعت نور شمسه فى القلوب وأضاءت فمالها من غروب
يتباهون بالحبيب فكل آخذ من حبيبه بنصيب

ومثل نظرالعبد إلى أعماله، وأفعاله، وأحواله. كمثل رجل أسرج سراجا كما وصفنا.

ثم اتصلت له هذه الأنوار التى وصفتها. فهل ينظر إلى السراج بعد ما ظهرت له هذه الأنوار؟ لا. بل يشكر لمن وفقه للأعمال.

وكذلك الموحد رأى سره معاينة بحقائق الإيمان، ومشاهدة بنور هداية الرحمن. آثار عظمة الله، وقدرته، وجلاله، وكبريائه، وفردانيته.

فلم يلتفت إلى عمله، ولم يعتمد عليه، واعتمد على الله، وغرق فى أنوار مشاهدة منته، ولطائف رحمته، وشواهد رأفته.

فتبرأ من النظر إلى حركات نفسه، وأزرى بنفسه لما رأى من سوء أخلاقها، وقبح مرادها.

ومثل آخر. أن الكواكب إنما يكون سلطانها فى ليلة ظلماء. فإذا طلع القمر، وكانت ليلة البدر. غلب نوره نورّ الكواكب، وخفى أكثر النجوم.

فإذا أسفر الصبح، وطلعت الشمس. انطمست أثار الكواكب الباقية وذهب نور القمر.

فما ظنك فى عمل النفس عند ظهور الربوبية بالتوفيق، والمعونة، والهداية.

وهل يعتمد الموحِّد على عمل مادام يرى لطائف ربوبيته، وسعة رحمته. إذ العبد قائم بربه، غير مستغن عنه ظاهرا، وباطنا، لدينه ودنياه، طرفة عين، ولا أدنى من ذلك.

فلما كانت الهداية، وأنوار الولاية، ولطائف حسن الرعاية، جملت، وشملت، وكثرت، لم يبق النظر إلى حركات النفس، وأعمالها على سبيل ما يرى فى كل لحظة، وطرفة، من لطائف الرب جل وعلا.

وأبين لك شيئا من صفة هذه القلوب التى يتولاها ربها.

اعلم. . ـ رحمك الله ـ : أن قلوب أولياء الله تعالى، خزائن الحكمة، ومواضع الرحمة، ومعادن المشاهدة، وكنوز المعرفة، وبيوت الكرامة، ومواضع نظر الله جل جلاله إليها برحمته، ومزرعة رأفته، وأوانى علمه، وأخبية حكمته، وأوعية توحيده، ومواضع فوائده، ومساكن عوائده، وأكنة أنوار من نوره.

ينظر إليها برحمته فى كل لحظة، فيزيد أنوارها، ويصلح أسرارها.

وقد زينها الله بنور الإيمان، وأسسها بالتوكل على الرحمن، وحشاها من لطائف الامتنان، وبنى حيطانها من فوائد الإحسان، وطيب أرضها بنور الحق والهدى. حتى طابت تربتها من خبث الشرك، والشك، والنفاق، وسائر الفواحش.

فهذه الأرض. أرض المعرفة. ساقها الله من بحر الرضى حتى نبتت فيها من أنوار النفس، وأيدها بحسن معالجة أصحاب البساتين، وهم السادات من المتقين، وأخرج أكمامها بريح متابعة سيد المرسلين.

ورباها بالرياح الربانية: ريح الرحمة. . وريح الرأفة. . وريح الظفر. وما يشاكلها من رياح الربوبية.

وأنضج أثمارها بحر شمس المعرفة. وزادها بمضى ليل الافتقار، ونهار الافتخار.

وأحسن لون فواكهها صبغة الله. وهى بيان أحكام الشريعة، واستمساك العبد بالعروة الوثقى.

وطيَّب طعمها بالتمسك بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. ثم وضع سرير المحبة على أرض الحق، المطيِّب ترابها، بنور اللب، المؤيد بنور التوفيق، المغذى بغذاء التصديق، المؤسس بأساس التحقيق، المسدد بركنه الوثيق.

وبسط على هذا السرير الفرش الوثير من الحول والقوة، وألقى عليها من نمارق التضرع والاستكانة، وجعل متكأه الاستقامة، واعتماده على الله: أن يثبته على الحق، ولزوم الجماعة.

ثم أجلس على هذا السرير عبده، ووليه، مسرورًا، مؤيدًا، منصورا. قد ألبسه لباس التقوى، ونزع عنه ثياب التكلف والدعوى، وخلع عليه كرامته من خزائن فضله، وشد أزره بمنته، وتوفيقه.

وتوجه بتاج ولايته، وغسله بماء بره، ورعايته، وزاده طهارة من بحر هدايته، وأطعمه من حلاوة ذكره ومحبته، وسقاه شرابا طهورًا بكأس التوحيد، من بحر التفريد. ممزوجا بحلاوة وصلته حتى صار قائما بالله، غائبا سره عمن سواه.

قد ذلت نفسه عند ظهور عزته، وتلاشت عن التكلف عند رؤية نصرته.

فقامت نفسه فى خدمته كالعبد المحجور، أو كالمضطر المقهور أو كالأسير المأسور.

ثم نظر إليه ربه نظرة رحمته. فنثر عليه من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية.

حتى قام مقام حقيقة العبودية. فأغناه الله تعالى بذلك. ثم قربه، وناداه، وأكرمه، وسماه، ولطف به، ودعاه.

فآتاه حين سمع دعاه. فأيده الله تعالى، وقواه، واكتنفه وآواه. حتى أجابه ولباه، وفى السر ناداه، وفى كل وقت ناجاه، وصرخ إلى مولاه، لايعرف له ربا سواه.

فأعطاه سؤله ومناه، واصطفاه لخدمته وهداه، ولمحبته ارتضاه، ولمعرفته اجتباه.

وأجرى بين يديه أنهار من الصدق، والصفاء، والتحقيق والحياء، والمحبة والرضاء، والخوف والرجاء، والصبر والوفاء، والشكر والقضاء، والبقاء،

واللقاء، والافتخار، والافتقار، والتعظيم، وترك الاختيار، والنظر فى الأقدار، ومشاهدة العزيز الجبار.

يزيده الله فى كل وقت من اللطائف. ما عجز الواصفون عن وصفه. وهو فى قرب من مولاه، مستوحش من دنياه، اشتغل بالله عن النظر فى عقباه.

فهو فى أرغد عيش مع مولاه. يخاف زوال هذا الحال، ويخشى حادثة توجب الانتقال عن مقام مشاهدة الكبرياء والجلال.

وهو فى هذه الحالة كالأنيس المستوحش، وكالمستقر المستوفز، وكالمطمئن المضطرب.

قد غرق فى بحر لايرى شطه. وهو بحر التوحيد، ولايتمنى النجاة من هذا الغرق.

يتلذذ هذا الموحد كما يتلذذ المتلذذون من حلاوات الدنيا، ويألم من ألم فراقه بما لا يألم أهل الأوجاع، والأمراض، والشدائد، والمضروبون بالسياط، والمجَّرمون بالحديد. فعافاه الله من ألم الفراق، وجمع له كل عافية، وجمَّله من عنده، وآمنه.

فسبحان من آلى على خاصة أوليائه، والمقربين من أصفيائه بالآلاء العظيمة. وأنعم عليهم بالنعماء الجسيمة، وعصمهم من الأهواء السقيمة، ومَّن عليهم بالقلوب السليمة، وسلك بهم سبيل المحجة المستقيمة فله الحمد على دفع البلاء، وبذل العطاء، وزيادة النعماء وكرامة الهدى، ورفع الردى، والتوفيق بالاقتداء بنبيه المصطفى وملة خليله المجتبى، وسنة رسول الله المرتضى.

خاتم الأنبياء والرسل إلى أوضح السبل. ختم الله به النبوة، وبدر بمتابعته إلى إقامة المروة، وإحياء الفتوة، وقطع به الحجة.

وأرسله للعاملين رحمة، ودفع به كل نقمة، وأتم به النعمة.

إذ هو رسوله المصطفى صلى الله عليه وعلى آله أهل الصدق، والصفاء وعلى أصحابه أهل المحبة، والوفاء.

وعلى أزواجه أهل العفة، والتقى. وسلم.

ولا ملجأ، ولامنجا منه.

وهو ولى كل مؤمن. ونعم المولى هو.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآيــــة	الصفحة

الآيـــة **الصفحة**

الآيـــة	الصفحة

الآيـــة	الصفحة
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾	١٨
﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾	٧٤
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾	٢٨
﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾	٣٨
﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾	٣٩
﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾	٥١
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾	٧٦
﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾	٦٥
﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾	٢٩
﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾	٧٥
﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾	٧٥
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾	٢٦
﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾	٣٨، ٥٦
﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾	٦٠
﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾	٣٩
﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾	٢٧
﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾	٤١
﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾	٢٥
﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾	٥٧
﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾	٢٥، ٣٩
﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾	٣٣

الآيـــة	الصفحة
﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾	٥٢
﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾	٥٩
﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾	٧٤
﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾	٤٧
﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ ...	٥٧
﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾	٢٩
﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾	٧٢
﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾	٣٠
﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾	٦٥
﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾	٢١
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾	٣٧
﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾	٦٦، ٤٩
﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾	٧١
﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾	٤٨
﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾	٧٦

الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
	٥٣

الحديث	الصفحة

الحكم والآثار

الصفحة

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- كتب الحديث.
٣- ابن شرف الدين: زكريا يحيى - التبيان فى حملة القرآن - ط القاهرة.
٤- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبدالله محمد - مفتاح دار السعادة- ط القاهرة.
٥- ابن منظور: أبو الفضل محمد بن جلال الدين - لسان العرب - ط بيروت.
٦- أبو نعيم: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ط دار الفكر العربى.
٧- بركة: الدكتور عبدالفتاح بركة - الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية - طبع مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
٨- الحسينى: الدكتور عبدالمحسن الحسينى - المعرفة عند الحكيم الترمذى - ط القاهرة.
٩- الحكيم الترمذى: أبو عبد الله محمد بن على المتوفى سنة ٣٢٠ هـ.
١- كتاب الأكياس: والمغترين تحقيق الدكتور أحمد السايح والدكتور السيد الجميلى - ط القاهرة.
٢- أدب النفس: تحقيق الدكتور أحمد السايح - ط الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة.
٣- غور الأمور: مخطوط جارى تحقيقه بعناية الدكتور سامى عفيفى حجازى والدكتور أحمد السايح.
٤- كيفية السلوك إلى رب العالمين: تحقيق الدكتور أحمد السايح ط الدارالمصرية اللبنانية القاهرة.

٥- علم الأولياء: تحقيق الدكتور سامى نصر لطف ـ ط مكتبة الحرية مصر.

٦- منازل العباد من العبادة تحقيق الدكتور أحمد السايح ـ ط المكتب الثقافى بالقاهرة.

٧- الأمثال من الكتاب والسنة: تحقيق الدكتور أحمد السايح ـ طبع دار الزهراء للإعلام العربى. القاهرة.

٨- نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول تحقيق: الدكتور السيد الجميلى والدكتور أحمد السايح ـ ط دار الريان للتراث الإسلامى القاهرة.

٩- الصلاة ومقاصدها: تحقيق الدكتور السيد الجميلى والدكتور أحمد السايح ـ ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة. السعودية.

١٠- الحج وأسراره: تحقيق الدكتور أحمد السايح ـ تحت الطبع.

١١- النفس والقلب والروح المسمى حقيقة الأدمية: تحقيق الدكتور أحمد السايح ـ ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة. السعودية.

١٠- السايح: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح ـ السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية ـ ط دار السلام بالقاهرة.

١١- السايح: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح ـ بحوث ودراسات ـ ط دار فرسان الكلمة بالقاهرة.

١٢- السايح: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح ـ الفضيلة والفضائل فى الإسلام ـ ط مركز الكتاب للنشر القاهرة.

١٣- السايح: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح ـ هذا هو الإسلام ـ ط مركز الكتاب للنشر القاهرة.

١٤- السايح: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح ـ أضواء حول الحضارة الإسلامية ـ ط دار اللواء بالرياض. السعودية.

١٥- السيوطى: الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر ـ الجامع الصغير ـ ط القاهرة.
١٦- الشوكانى: محمد بن على ـ فتح القدير ـ ط الحلبى مصر.
١٧- طاش كبرى زادة: حسام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ ط الاستقلال الكبرى.
١٨- عبداللطيف: الدكتور عبدالموجود عبداللطيف ـ كشف اللثام عن أسرار تخريج حديث سيد الأنام ـ ط مكتبة الكليات الأزهرية.
١٩- الغزالى: حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالى ـ ثلاث رسائل فى المعرفة تحقيق الدكتور محمود حمدى زقزوق ـ ط مكتبة الكليات الأزهرية.
٢٠- الغزالى: حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالى ـ المنقذ من الضلال ـ ط دار الكتاب اللبنانى.
٢١- الفيروزابادى: مجد الدين محمد بن يعقوب ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ـ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.
٢٢- القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ـ ط كتاب الشعب بالقاهرة.
٢٣- مجمع اللغة العربية معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ ط الهيئة العامة للكتاب بمصر.
٢٤- النووى: محيى الدين النووى الشافعى ـ كتاب الأذكار ـ ط الحلبى بمصر.
٢٥- الهندى: علاء الدين على المتقى بن حسام الدين ـ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ـ ط مؤسسة الرسالة.
٢٦- اليافعى: أبو عبدالله اليافعى ـ نشر المحاسن العالية ـ مخطوط دار الكتب القطرية. قطر.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٩٧/١٣٠٠٩
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-294-038-8

طبع آمون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦

2

مركز الكتاب للنشر